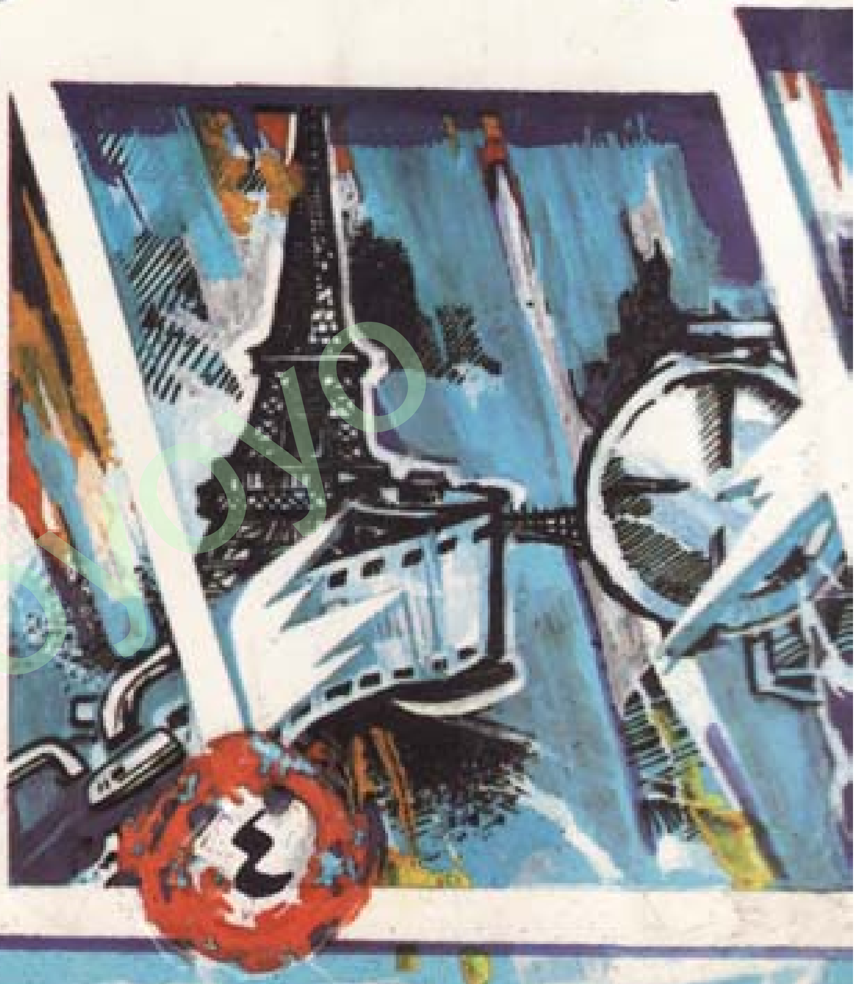
الأعمال الكاملة



صالح مرسي



الصعود إلى الهاوية



٤

مكتبة مدبولي الصغير

الصعود إلى الهاوية

الطبعة الأولى
١٤١١هـ ــ ١٩٩١م

مكتبة مدبولي الصغير
ميدان سفنكس ــ المهندسين

عربية للطباعة والنشر

الأعمال الكاملة

صالح مرسي

الصعود إلى الهاوية

مكتبة مدبولي الصغير

مقدمة الطبعة الثانية

كلمة قبل أن تقرأ الكتاب

ترددت كثيراً قبل أن أقدم على كتابة هذه السطور.

وعندما فكرت، وكان هذا قبل بضع سنوات، فى دفع الكتاب إلى الطبعة الثانية... كان أول ما خطر لى، هو اعادة صياغة هذه القصص، أو بمعنى أدق، هذه العمليات التى يضمها الكتاب مرة أخرى!

ذلك أنى عندما كتبتها، ونشرتها فى مجلة «المصور»، ثم جمعتها فى كتاب ــ وكان هذا منذ ثلاثة عشر عاماً ــ كنت لا أزال فى أول هذا الطريق الشائك الذى قدر لى أن أخوض فيه... وأنا اليوم، عندما أنظر إلى الوراء، إلى ما يزيد على سبعة عشر عاماً ــ فى بدء تعرفى على هذا العالم ــ أجد الأفكار تتزاحم فى

رأسى، بل تتدافع فى عنف يزيد من حدته، تدافع الذكريات معها !!.

كانت الرحلة جد شاقة ... وهى، ككل رحلة مثمرة، فيها ما يبعث على الفخر والسرور، وفيها أيضاً ما يبعث على الألم ... تبدو لى تلك السنوات الآن، وكأنها حياة كاملة ... حياة يولد فيها الإنسان دون أن يؤخذ رأيه ... ولكن نهاية الرحلة هنا، فى يد الإنسان نفسه، يستطيع أن يستمر فيها، ويستطيع إذا ما أحس أنه أدى ما عليه، أن يتوقف كى يفسح الطريق، ويترك المجال لمن سوف يأتى من بعده، كى يكمل السير فى الطريق !!

غير أن الرحلة ــ بكل ما فيها من سعادة وألم ــ تبدو دون أدنى شك، بالغة الثراء ... اضافت إلىّ الكثير، وتعلمت منها مالم يخطر ببالى أنى سأتعلمه يوماً ... خضت فى عالم لم أتصور ــ قبل أن ألتقى بذلك الشاب الفارع الطويل الذى أطلقت عليه فى مقدمة الطبعة الأولى اسم السيد خالد ــ أن أخوض فيه، أو حتى أتعرف عليه !

قادتنى هذه الرحلة من عالم إلى عالم آخر ... فى عالم يعيشه الملايين من البشر، إلى عالم يعيشه الخاصة من ذوى القدرات الفذة والعقول المدربة الذكية والإرادة الحديدية ... من عالم الفن والأدب بكل ما فيه من انطلاق وحرية، إلى عالم تصبح فيه الخطوة ــ بل الكلمة ــ محسوبة حساباً بالغ الدقة، وكأن الإنسان يكتب فوق ورق ملغوم !!

فى خلال الرحلة، وفى عام من أعوامها، وجدتنى أخوض تجربة بالغة المشقة ... وأنا اليوم إذا ما أردت توصيف تلك المرحلة التى خطوت فيها الخطوات الأولى فيما يطلق عليه اليوم فى العالم العربى اسم : «أدب التجسس» ... لا أجد ما أقوله سوى ان إقدامى على تلك التجربة كان مفعماً بحماس بلا حدود، كانت إضافة مجال جديد للأدب العربى شيئاً يبدو لى مبهراً. غير أن دليلى فى كل ما خضت من تجارب ومتاعب، كان كلمة واحدة، هى : مصر!

لذلك ــ هكذا كنت أقول لنفسى ــ فلتكن مصر هى شفيعى ان كنت قد قصرت، وليكن ولائى لها هو وسامى ان كنت قد استطعت أن أحقق ولو خطوة واحدة.

وعلى كل ...

فلقد كانت البداية هنا ... بين دفتى هذا الكتاب الذى بين يديك الآن، كانت البداية هى تلك المجموعة من القضايا أو العمليات التى كتبتها دون أدنى محاولة منى لاضافة ولو قليل من الخيال ... ذلك الخيال الذى يضفى على «واقع» الأمر قليلاً من الطراوة ــ ان صح التعبير ــ لتخفيف حدة الهجير الذى يصطلى به كل من يعمل فى هذا الحقل.

لم أكن يومها ــ يوم ان كتبت هذه المجموعة ــ قد فكرت، ولم يخطر ببالى، ولم احاول أن اكتب أدباً ... كل ما كنت املكه، هو استخدام اسلوب الأديب فى العرض ... فلقد كنت أشعر

بالوجل وأنا اقترب من هذا الميدان البالغ التعقيد... كما كانت معرفتى به جد قليلة، والمامى بقوانينه بالغ التواضع... كما أن «الاحساس» ـ وهذا في رأيي أهم مشكلات الكاتب ـ بالموضوع كان مفتقداً... تلك كانت سنوات الدهشة والانبهار والتحصيل والاكتئاب والخوف والترقب والتوتر معاً... كانت سنوات المكابدة لما كان يعتمل فى نفسى دون أن ادركه بوعى، يقودنى نحو قدر بالقطع كان مخططاً، ومهما كانت الآلام، ومهما كانت المتاعب أو المشقة... ومهما بلغ النجاح من مدى، فأنا بهذا القدر فخور!!

لذلك... فعندما حان وقت دفع الكتاب إلى الطبعة الثانية، فكرت فى أن أعيد صياغة هذه القصص أو القضايا، مستهديا بما أضيف إلىّ من معرفة ـ لازالت متواضعة ـ والأهم، بما أضيف إلى من خبرة!

لقد كانت قضية «الخيال» فى هذه القصص، من القضايا التى اثارت الكثير من الجدل والتساؤل، ولقد كان السؤال التقليدى الذى كنت أواجهه، هو:

«هل حدث هذا فعلاً ؟؟!»

فإذا ما أجبت بالايجاب، كان السؤال التالى:

«بكل ما فيه من تفاصيل ؟!»

فاذا ما كان جوابى بنعم، عاد السؤال يلح:

«اليس هناك شيء من خيال ؟!»

ولقد كان السؤال ـ بكل المعانى ـ منطقياً... غير أن الأمر لم يقتصر على القارىء العادى، بل ان نفس السؤال كان يطرحه على أصدقاء واساتذة من المثقفين والادباء والزملاء والصحفيين فى رغبة حارة لمعرفة الحقيقة... ووصل الأمر ـ فى ساحة الأدب ـ إلى حد انكار البعض لمحاولاتى فى الحفار ورأفت الهجان وسامية فهمى، ان يكون لها نصيب من الأدب... حتى إذا ما التقيت ذات مساء باستاذ ممن تعلمنا على ايديهم الكثير، فاذا به يسألنى نفس السؤال... ولم أدر بم أجيب، فلقد بدا لى الأمر باعثاً على الشفقة... ذلك أن أى عملية من عمليات المخابرات، حتى ولو كانت تنشر كعملية مخابرات خالصة لا دخل للأدب فيها، من المحال أن تنشر كما حدثت ووقعت... ذلك أن هناك مناطق محرمة لا يفرط فيها أى جهاز للمخابرات فى العالم مهما بلغت درجة ما يطلقون عليه اسم «حرية النشر» فى أى دولة من دول العالم... تلك مناطق تمس أمن الدولة مساً مباشراً... وتصبح هناك ـ بناء على اختفاء هذه المناطق أو اخفائها ـ فجوات فى السياق لابد للفن أن يملأها وان يصوغها فى اتساق مع بقية الاحداث حتى يصبح من المتعذر بعده أن نفرق بين ما حدث فعلا وما اضيف أو استجد.

ثم يبقى شيء هام يحسم القضية تماماً...

يبقى أن نتنبه إلى حقيقة بالغة البساطة... وهى أن الخيال المضاف، مهما بلغت نسبته، فانما هو نابع من «الواقع» نفسه،

أى من العملية وموضوعها وظروفها ومناخها ... وبهذا المنطق، نستطيع القول، ان الصياغة الأدبية لا تقتطع من الواقع شيئاً، ولا تضيف إليه إلا بمقدار ما يعطيها !!

وحتى بدأت تجربتى الأولى فى رواية « الحفار ». كانت كل الكتابات التى وقعت فى يدى، والتى تتحدث عن هذا المجال، لا تتعدى نوعين.

النوع الأولى، هى الكتابات التسجيلية ... وهى تلك التى يعـرض فيها الكاتب لقضية ما، أو حدث، أو احداث وقعت بالفعل بغرض التسجيل التاريخى ... ولعل أشهر كتابين والأقرب إلى الذهن، هما كتابا « صائد الجواسيس » لبيتر رايت، و« القناع » لبوب وود وارد ... وهذا النوع بالطبع ليس أدباً ولا يمت إلى الأدب بصلة، ولا علاقة له به.

أما النوع الثانى، فهو النوع الخيالى الذى برع فيه الكاتب البريطانى « ايان فيلمنج » ... وهو نوع من الأدب، يقترب إلى حد ما من القصص البوليسى ـ رغم الاختلاف البين بين المنهجين فى الكتابة ـ ولقد ابتكر ايان فيلمنج شخصية « جيمس بوند » أو العميل « ٠٠٧ »، وهذا النوع من الروايات لا ظل له من واقع، فهو يعتمد على احداث خيالية، وموضوعات اختلقها المؤلف وعالجها باسلوب مثير ... وان كنت أرى أن السيد فيلمنج، قد استفاد فائدة عظمى من عمله كضابط مخابرات قبل أن يحترف الكتابة ... كما أنه ـ من وجهة نظرى ـ افاد حقل المخابرات

والتجسس بتلك المبتكرات التى كانت ـ وقت كتابته لتلك القصص ـ ضرب من خيال، تخطاه الواقع الآن بفراسخ !

هذان هما النوعان اللذين عرفتهما قبل أن اخوض تجربة الأدب فى هذا المجال.

وكان السؤال الذى طرحته على نفسى عندما بدأت كتابة « الحفار » هو:

هل من الممكن تحويل الواقع إلى أدب ؟!

هل من الممكن خلق « رواية » تعتمد على ما حدث « موثقاً » ؟!

كان هذا هو السؤال.

وكان أيضاً هو التحدى الذى قررت خوض غماره بعد الحفار فى رأفت الهجان وسامية فهمى. وكانت التجربة صعبة بحق، لا لشيء ... الا لأنى أردت اعلاء رأيه الواقع حرصاً منى عليه، كانت المراجع فوق مكتبى تتزايد يوماً بعد يوم، والحاجة إلى دقة التاريخ لا تترك لى وقتاً للتنفس، ومزج الواقع بالصياغة الفنية تتزايد صعوبته صفحة بعد أخرى. ولكن التجربة، فى النهاية، خرجت إلى الناس كخطوة أولى فى طريق حاولت فيه أن أشق للأدب العربى طريقاً جديداً !

وكان أن اختلفت الرؤى ...

كان هناك رأى يرفض أن يكون « هذا » أدباً بأى معنى من المعانى !

وكان هناك من يرى أن هذا أدب خالص، وان اعتماده على الواقع زاده ثراء... وبقيت القضية قائمة..

ولذلك.. وعندما فكرت في «اعادة صياغة» هذه المجموعة التي يضمها الكتاب، أحسست أن هذا قد يكون نوعاً من الإحتيال...

فلو قدر لي مثلاً أن اعيد صياغة قصة من اطلقت عليها اسم «عبلة كامل» في قصة «الصعود إلى الهاوية» وسمحت لنفسي أن اكتبها من جديد، لجاءت الآن شيئاً مختلفا تمام الاختلاف عن هذه التي تضمها صفحات الكتاب... سوف تكون الاحداث هي هي، والوقائع هي هي، البداية هي البداية والنهاية هي النهاية... ولكن الممارسة والمذاكرة واستيعاب الجو والاحساس ومعرفة القوانين والاعراف وحتى لغة التخاطب مع الخبرة، سوف تضيف دون أدنى شك إلى الاسلوب والبناء الكثير من الاختلاف والكثير من الرونق أيضاً!

ثم... ...

ثم يبقى بالنسبة إلى ما هو أهم... سوف يبقى أن اعادة الصياغة سوف تطمس تلك الخطوة الأولى التي خطوتها في هذا النوع من القصص، وهذا ضرب من التزوير آباه على نفسي كما آباه على القارىء... أن الخطوة الأولى مهما كانت متواضعة، هي دليل ومرشد لذلك الطريق الذي يخطه الأديب لنفسه منذ أن يمسك بالقلم، وحتى يسقط القلم من يده.

وهناك بعد كل هذا، قضية أخيرة... وهي قضية تلك التسمية التي أطلقها البعض على هذا النوع من الأدب، وهي: «أدب التجسس»!

وهي تسمية اراها ــ ان سمح لي هؤلاء البعض ــ غير ذات موضوع.

ففي بداية حياتي الأدبية، ولقد كنت قبلها بحاراً، كانت القصص التي كتبتها والتي قدمتني إلى القارىء، تدور أحداثها في البحر وفي مجتمع الصيادين... كنت في حقيقة الأمر محظوظاً إلى حد بعيد... فلقد احتفى القراء والنقاد معاً بتلك القصص احتفاء كان زاداً لي في السنوات التالية... وكان أن أطلقوا على قصصي ورواياتي اسم «ادب البحر»، كما اطلقوا على اسم «أديب البحر».

ولم اهتم وقتها بتلك التسمية، بل، ربما اسعدتني لانها ميزتني وسط ابناء جيلي من الأدباء... غير أن التجربة، والسنوات، والنضج، جعلتني اتساءل: لماذا لم نطلق هذه التسمية على العملاق الأمريكي «هيرمان ميلفيل» صاحب «موبي ديك» و«بللي بد» وغيرهما من القصص والروايات رغم أن ميلفيل تخصص فعلا في الكتابة عن البحر؟!... كما لم تطلق هذه التسمية على علم من أعلام الأدب الانجليزي هو «جوزيف كونراد» وقد تخصص هو أيضاً في الكتابة عن البحر... بل عُرف كل منهما على أنه علم من أعلام «الأدب الانجليزي»، تدرس اعمالها وتدرس على أنها أدب فقط دون تسمية!

إن البحر شأنه شأن الحياة فى المدن والقرى والمصانع والمهاجر، نوع من أنواع النشاط الانسانى... كما أن التجسس ــ أيضاً ــ نوع من أنواع النشاط الإنسانى... بل ربما كان واحداً من أقدم النشاطات الإنسانية على الاطلاق!

كل ما فى الأمر، أن قصص البحر كانت جديدة على الأدب العربى.

كما أن هذه القصص التى تدور فى حقول المخابرات وعالم التجسس، جاءت جديدة أيضاً على الأدب العربى.

وبعد...

فليس فيما سبق من سطور دفاعاً عن هذا النوع من القصص، بل، فقط، هو محاولة لتوضيح الأمور لمن يريد مزيداً من التوضيح أو الايضاح، وهو طرح لوجهه نظر للبعض حرية قبولها أو رفضها... فيكفينى فى هذا المجال، شرف المحاولة!

ومن يدرى...

فلربما جاء من بعدى أديب يرسى دعائم هذا النوع من الأدب. ويحسم الخلاف فى الرأى بين هؤلاء وأولئك... وقتها، لن تجدوا فوق سطح الأرض، من هو أسعد منى.

صالح مرسى

الاسكندرية ــ ٢٧/ مايو/ ١٩٩١

وسقط القناع عن وجه الغريب

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا.. وكان الطريق الطويل المحاذى لقصر القبة يبدو خالياً إلا من سيارة تسير هنا أو هناك.. ثمة جو يخيم على البلد كلها، وهزيمة يونيو لم تطو بعد عامها الأول.. وفى مكان خال من المبانى، توقفت سيارة تحمل أرقام أجرة القاهرة.. ونظر السائق إلى راكبه الغريب وهو يمسح المكان بعينيه فى دهشة.. إلى أين يذهب هذا الراكب ذو الجسد المدكوك والوجه المكتنز والعينان اللامعتان، غير أنه تناول أجره ومضى تاركاً ذلك الشاب يقف وسط الشارع وحده.. وراح صاحبنا بعد أن مضت السيارة وابتعدت يمسح الطريق بعينيه يمنة ويسرى.. كان يرتدى بذلة كاملة والجو ربيعى بارد، وعيناه تمدان أذرع البصر إلى ذلك المبنى القابع خلف أسوار الصمت.. كان هذا المبنى بالذات هو وجهته.. وكان قبل أن يدخله لأول مرة، يريد أن يطمئن أن أحداً لا يتبعه ويراه.



ملأ صدره بالهواء بعد أن اطمأن ، وبدأ مسيرته ، وعند بوابة المبنى «مبنى المخابرات العامة المصرية» توقف ، ولمعت عيناه ببريق غريب .. أغلب الظن أن قلبه كان يدق فى تلك اللحظة بسرعة أكثر من المعتاد .. وأغلب الظن أنه تذكر البداية التى قادته فى ذلك الصباح إلى هنا ..

ولقد كانت البداية هناك .. فى اليمن .

وعندما استدعى الملازم أول «ماهر» مع كتيبته فى النصف الثانى من مايو ١٩٦٧ كان مستغرقاً فى تدريب جنوده على «ضرب النار» تمهيداً لدخول احدى مسابقات الرماية .. وكان أمله أن تفوز الكتيبة بالمركز الأول فى هذه المسابقة .. غير أن أمر الاستدعاء جاء ليحمله إلى ظهر سفينة اقلعت بهم من ميناء الحديدة فى أقصى جنوب البحر الأحمر إلى الشمال .

ولقد وصلت السفينة إلى الأدبية وعبر ماهر مع كتيبته القناة إلى سيناء ، وتحركت بهم السيارة لتقطع شبه الجزيرة العربية من غربها إلى أقصى الشرق فيها .. إلى مسافة قريبة جداً من الحدود الاسرائيلية .

وكان هذا يوم ٣ يونيو عام ١٩٦٧ ..

وكان عليهم أن يقضوا يومى ٣ ، ٤ يونيو فى تجهيز مواقعهم .. وفى حماس راح الجميع يعملون ... غير أن ضابطنا الصغير السن والرتبة ، كان يتملكه فى ذلك الوقت ــ مثله مثل

باقى الرجال ــ احساس غامر بالعزة .. احساس غذته تلك المدمرات التى كانت تحيط بالسفينة فى رحلتها من الجنوب إلى الشمال ، وتلك الغواصات التى كانت تحميها طوال الطريق تحت الماء ، ومشهد الطائرات التى كانت تحوم حولها فى السماء .

غير أن صباح ٥ يونيو جاء ليهدم كل شىء ها هى الصحراء أمامه بلا نهاية ، الشمس والحرارة والرمال والجبال والاقدام تخوض فى بحار من الحصى والصخور الملتهبة والاحساس العميق بالهزيمة .. الجوع لا يهم لكن العطش كان مأساة المآسى .. ساعة بعد ساعة كان يتجه غرباً .. ولكن كان عليه أن يتجنب جنود العدو الذين سيطروا على شبه الجزيرة العزيزة ، أكثر ما كان يضنيه ويعذبه أنه لم يكن يعرف شيئاً ... لا شىء سوى السماء يسيطر عليها الطيران الاسرائيلى فأين ذهب طيران مصر ؟ .. لا شىء سوى صحراء يسيطر عليها الفزع وجنود العدو ينعمون بالغلبة لكن سلاحه على كتفه ... فهل يموت من العطش ؟ أم يترك نفسه للأسر ؟ .. أم هناك طريق ثالث ؟ ..

كان الطريق الثالث هو الثقة فى السلاح .

ما أسهل أن يلقى نفسه على الأرض ويترك العدو فرصة أن يأسره وليكن بعدها ما يكون ، أصبح عليه أن يختفى طوال النهار فى صخور الشاطىء ــ وكان قد استطاع الوصول إلى خليج

السويس_ دون أقل حركة.. الظلال والحرارة والعطش والطائرات لا تختفى من السماء وكان عليه أن يتحول دون طعام أو شراب إلى صنم.. حتى إذا جاء الليل هبط إلى المياه وراح يخوض فيها سعيا نحو الشمال، نحو قناة السويس.

الحديث يبدو مثل قصة سينمائية، ولكن آثار الجروح فى جسده علامة صدق لا تخطئها عين.. فى كتفه شظايا دانات أطلقت عليه أو بالقرب منه، فى مفصل ساقة ثلاث رصاصات.. استأصلوا بعد ذلك إحدى كليتيه كما استأصلوا جزءاً من طحاله، وفقد أيضاً ضلعه السابع.. ورغم كل ذلك فلم يكن يشعر بالألم.

لم يعد باقياً فيه _بعد أن مرض الجسد_ سوى العقل، وبالعقل استطاع أن يصل إلى السويس فى أحد أيام العشرينات من يونيو.. شبحا كان أم جنديا جريحاً؟ وإذا نفس اللنش الذى كان يسحب السفينة التى أقلعته من اليمن عندما دخلت ميناء الأدبية، هو هو نفس اللنش الذى انتشله من المياه وهو بين الحياة والموت.. انتشله جسدا مزقته الرصاصات والشظايا، وعينان تبرقان بآلاف الأسئلة.. كانت كلها تبدأ بكلمة: لماذا؟..

غير أن لحظة واحدة كانت مثل وسام يوضع على صدر ذلك الضابط الصغير الذى لم يكن يتعدى فى ذلك الوقت الخامسة

والعشرين من العمر.. تلك اللحظة التى اختفى فيها الألم، وغابت عن الذهن الاصابات والجروح، وتقهقرت الأسئلة إلى حين، تلك اللحظة التى وقعا فيها، وفى جسده ما فيه، فى أحد أكشاك الشرطة العسكرية فى ميناء الأدبية ليسلم لهم سلاحه الذى أوتمن عليه.

■ ■ ■

بعد ذلك بدأت مرحلة آلام من نوع آخر.. من مستشفى إلى مستشفى كان ينتقل، من غرفة عمليات إلى غرفة أخرى، ومن طبيب إلى طبيب.. وليست آلام الجسد هى ما كان يشعر به ماهر، لكنها آلام أشد وأقصى.. ويوم أن صدر قرار من المجلس الطبى العسكرى أنه أصبح لا يصلح الآن لأن يكون ضابطا محاربا، كاد يفقد هذا الشىء الذى كان دائماً يعتز به.. كاد يفقد عقله.

وعلى كل.. فقد توصلت ادارة شئون الضباط ذات يوم إلى حل وسط.. أن يخدم ماهر فى وحدة حراسة.

ولم يكن أمام صاحبنا سوى طريق واحد.. أن يوافق.

السخط والضيق والعذاب لا تزال الأسئلة تطن فى رأسه فراح يبحث عن اجابات.

وذات يوم دخل أحد المستشفيات وقد كانت الآلام تمزقه.. ذات صباح وجد نفسه فى صالة مليئة بالمرضى وكان

عليه أن يجلس حتى يأتى عليه الدور.. فأى دور هذا الذى يجب أن ينتظره مقاتل فقد أجزاء من جسده.. صاح وصخب وثار وكان عليه أن يجلس فى النهاية فوجد مقعدا جلس فيه.. بجواره طالعه وجه تركى الملامح أبيض الشارب ترتسم على الشفتين منه ابتسامة حنون.. مال عليه صاحب الوجه التركى وتحدث إليه وأخذه على كفوف الراحة.. قدم له نفسه.. فقدم له هذا الذى سوف نطلق عليه اسم «الغريب» نفسه

■ ■ ■

ورغم أن اسم هذا العميل الاسرائيلى قد نشر فى الصحف منذ سنوات، رغم أنه حوكم وأدين وصدر ضده حكم، فلقد كان من المستحيل تماما أن أحصل على أذن بنشر اسمه.. كان من المستحيل تماما رغم كل الحجج التى سقتها اليهم.. فهم هناك.. هؤلاء الرجال الذين يقبعون خلف أسوار الصمت يضعون للعوامل الانسانية كل اعتبار.. أن لهذا الرجل الذى خان الأمانة زوجة لاذنب لها، أن له أبناء يحملون اسمه لأنه أبوهم يعيشون كأى مواطنين شرفاء لأنهم لم يقترفوا اثما، فلماذا.. لماذا نحيى مامضى وقد نال المخطىء جزاءه.. ولولا ارتباطه بقصة ماهر، لما اثيرت هذه القضية مرة أخرى.

■ ■ ■

كان ماهر لايعرف فى ذلك اليوم وهو يجلس فى احدى قاعات ذلك المستشفى العسكرى، بجوار ذلك «الغريب» ذى

الابتسامة المطمئنة، أنه يخطو خطوته الأولى نحو هذا العالم الرهيب.. عالم الجاسوسية.

ولقد كانت تلك اللحظة الأولى التى وقف فيها الملازم أول ماهر أمام حارس مبنى المخابرات العامة المصرية، نقطة تحول رهيبة فى حياته.. لم يكن يدرى أنه بعد ساعة من الزمن، سوف يصبح انسانا آخر، وسوف يدخل إلى بوتقه شديدة الحرارة، بوتقة تنصهر فيها حياته كلها.. كان الماضى بكل الآلام بكل الأحلام، ليتشكل من جديد، ليصبح انسانا آخر..

سأله الحارس عما يريد، فقال باختصار:

«عاوز أقابل مسئول».

وهناك فى هذا المبنى.. الذى يعرف رجاله كيف يعاملون أعتى الرجال دهاء فى العالم.. لم يكن من الصعب عليهم أن يتعاملوا مع ماهر، وأن يستقبلوه.

■ ■ ■

جلس ماهر أمام ضابط المخابرات المصرى فى غرفة مغلقة، فأحس بالراحة وقال:

«لقد جندتنى مخابرات اسرائيل»

«أغرب ما حدث أن هذا الضابط الشاب الهادىء الملامح المحدد القسمات الذى استقبله فى تلك الغرفة الشديدة الهدود

والصمت، لم يطرف له جفن، ولم ينطق .. هؤلاء الرجال لا يتكلمون كثيراً، لكنهم يعرفون كيف يجيدون الاستماع.

تنهد ماهر ــ اذن ــ وبدأ يحكى قصته.

■ ■ ■

فى ذلك اليوم، فى تلك القاعة، فى أحد المستشفيات العسكرية، جلس ماهر بجوار الغريب .. ولقد كان « الغريب » عربيا جاء إلى مصر طالبا حق اللجوء السياسى فمنح اياه.

وكان قد ذهب إلى ذلك المستشفى فى ذلك اليوم بدعوى الوطنية للاطمئنان على جرحى المعارك من الضباط والجنود .. وكان بارعاً فى تهدئة ماهر الثائر الرافض للانتظار فى الدور مثله مثل أى مصاب بالتهاب فى اللوزتين .. كما كان بارعا فى مد جسر الصداقة والتعارف مع هذا الضابط المتفجر بالحماس والوطنية .. وقبل أن يغادره ماهر كان على موعد معه فى اليوم التالى.

حقيقة هامة لاسبيل إلى انكارها .. أن الضابط المصرى الشاب، أحب « الغريب » حبا حقيقياً .. التقت ميولهما معا، وتناسقت أفكارهما، وكان موضوع الهزيمة ــ بطبيعة الحال ــ مثار لكثير من المناقشات بينهما .. مناقشات كانت تستمر طوال الليل يجمعهما دفء البيت أحياناً، أو صخب النوادى الليلية بكل ما فيها من مرح !! ..

ذات يوم قال ماهر للغريب أنه يكتب كتابا عن حرب ١٩٦٧ ..

ولأن الغريب كان لاجئا سياسياً، فلقد كان يزعم أنه على علاقة بالكثيرين من المسئولين فى مواقع سياسية، ومواقع وزارية .. لذلك فعندما وعد « الغريب » صديقه بأن يتحدث فى أمر كتابه هذا مع بعض المسئولين، أحس ماهر وكأن طاقة فى السماء قد فتحت له .. انكب على كتابه ليكمل فصوله .. راح يعمل فى حماس يصل فيه الليل بالنهار .. وإذا كان للغريب أقارب يعيشون فى ألمانيا الغربية، فلقد كان يزورهم بين الحين والحين، وعندما سافر ذات مرة لزيارتهم وعاد .. كان ماهر قد انتهى من الكتاب وكان على « الغريب » أن يخطو خوته التى وعد بها ذات يوم، فاتصل بوزير الثقافة فى ذلك الوقت والتقى به ليحدثه فى أمر الكتاب .. ثم عاد إلى ماهر وملامحه تنطق بالفشل .. لقد رفض نشر الكتاب.

وازداد سخط ماهر وتبرمه، وازدادت ثورته وضيقه .. وعندما سأله الغريب فى صوت هادىء:

ــ لماذا لا تنشر الكتاب فى الخارج ما دام نشره فى القاهرة متعذراً ؟

وافق ماهر دون تردد !!

فى تلك الأيام .. لم يكن ماهر قد تمرس بتلك الاساليب الخفية التى تتبع عادة فى الحرب السرية .. سافر « الغريب » ذات مرة إلى الخارج ، وعاد يزف إليه نبأ هاماً لقد استطاع أن يتعاقد مع ناشر ألمانى وافق على نشر الكتاب .

وكاد ماهر يطير من الفرح .

ولكن ... إذا كان هذا الناشر من المانيا الغربية ، فكيف ينشر كتاباً هو فى واقع الأمر يدين اسرائيل ويكشف حقيقة انتصارها المزيف .. فى الوقت الذى كانت فيه المانيا الغربية ضالعة مع اسرائيل علانية .

بذور الشك كانت تنبت ولكن الاحداث أيضاً كانت تتلاحق ويوم أن وصل إلى القاهرة مندوب عن دار النشر الألمانية جاء خصيصاً لمقابلة ماهر .. بدت المسألة جداً لا هزل فيه .. وجلس ماهر إلى المندوب وقرأ له صفحات من الكتاب فأثنى عليها هذا ثناء عاطرا ..

فسأله ماهر فجأة :

« كيف تنشرون كتابا يدين اسرائيل وأنتم ضالعون معها ؟ »

وكان الرد جاهزا بطبيعة الحال :

« أننا هنا لا تعنينا سوى الثقافة والحقيقة ، والرأى هناك متاح للجميع .. وان كان من الممكن أن تعاد صياغة الكتاب حتى يتفق أو يقترب من وجهة النظر الألمانية !! »

أمام هذا العرض الأخير توقف ماهر .

ما الذى كان يفكر فيه فى ذلك الوقت .

أكذب لو قلت أنى استطيع أن أحدد .. غير أنى أستطيع من جماع الحوار الذى دار بينى وبينه .. أن أتخيل .. فقط أتخيل .

هل بدأ الشك يساوره وهو يرى الطريق أمامه يفرش بالذهب ، ليصنع منه ذلك اللاجىء السياسى جاسوسا على بلاده ؟

أن الاجابة أن لم تكن « نعم » ، فانها بالقطع سوف تكون « محتمل » .

وعندما سافر المندوب ، لم يعكف ماهر على كتابه لاعادة صياغته .. كان أنفه قد بدأ يتشمم تلك الرائحة النفاذة للخيانة .. وضع مجموعة من الاحتمالات وانتظر .

وعندما أعلن « الغريب » أنه سيطير إلى ألمانيا تحقق واحد من احتمالاته ، وعندما عاد ، بدأ يقطع الشك باليقين .. ومما لاشك فيه أبداً ، أنه كان جسورا للغاية وهو يخوض اللعبة بشجاعة فائقة .

■ ■ ■

ما أن عاد « الغريب » من ألمانيا ، حتى تلهف ماهر بالسؤال عن مصير الكتاب ، ولم تكن لهفته حقيقية بأى معنى

من المعانى، وقال الغريب.. ان الناس هناك فى ألمانيا معجبون به أشد الاعجاب، لقد وجدوا فيه خامة عظيمة لشىء أعظم من الكتاب.. وإذا كانت الهزيمة قد حدثت فمن كان المتسبب فيها سوى الشيوعيين؟..

صمت الغريب، وقال ماهر: تمام.

ولقد كان العرض مبسطا ومغرياً!

انهم يريدون محاربة الشيوعية، وأن بعض المعلومات البسيطة من الممكن أن تكون مفيدة للغاية.. ولا شىء آخر..

ووافق ماهر..

وافق وهو واثق بأنه أمر لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء لكى يعلم أنه ـ كضابط فى القوات المسلحة، وكساخط على هزيمة لم يتسبب فيها، وكناقم على كل أسباب الخذلان ـ كان صيدا ثمينا.

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت.

وكان الغريب قد بدأ فى طلب المعلومات، وعندما حان وقت الحديث عن الأجر كان ماهر يقطع المسافة فى كلمة: «٥٠٠ جنيه فى الشهر».. ثم أضاف: «أنا عاوز مرتب سنة مقدما!!» ولو أن انسانا آخر غير ماهر هو الذى وضع فى هذا الموقف، لما جرؤ على الاستمرار، غير أن هذا الانسان بالذات،

كان يخوض اللعبة متعرفا على كل شىء راصدا لكل حركة مسجلاً لكل كلمة.. كان يريد أن ينتصر بعد أن هزم هزيمة لاضلع له فيها... و.. و..

وتوالى وصول المندوبين من ألمانيا الغربية.

وفى علم المخابرات، كان المندوب الذى يأتى يدرس جانباً من جوانب الجاسوس المبتدىء انهم يسألونه اسئلة يطلقون عليها اسم «الاسئلة الاختبارية!».. أنهم بهذه الاسئلة يمتحنون قدراته.. قدراته على الملاحظة والرصد، ورغبته فى الاعطاء والادلاء.

ونجح ماهر فى الاختبار نجاحا مذهلاً.

وسلمه الغريب ذات يوم ثلاثة آلاف جنيه مرتب نصف سنة.

كان الستار الذى يعملون خلفه الآن قد تحول إلى دار للنشر، لمحاربة الشيوعية.

ولكن.. إلى متى؟

إلى متى يطول الأمر حتى يفصحوا عن الحقيقة.. الحقيقة مجردة؟

ولقد افصحوا عنها يوم وصلت إلى مصر معدات التجسس.

يوم وصلت الكاميرا المينيكس وأدوات الحبر السرى، والأفلام والأوراق.. و...

ويوم وصل جهاز الارسال اللاسلكى.

يوم سقط القناع نهائيا عن وجه «الغريب» فإذا به عميل اسرائيلى فى قلب القاهرة!!

■ ■ ■

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا.. عندما انتهى ماهر من قصته.. وكانت الغرفة لاتزال ساكنة صامتة، وعينا ضابط المخابرات المصرى تسمعان، كما كانت أذناه تريان، أما شفتاه فكانتا مطبقتين.

وصمت ماهر... ونظرْ إليه!

وتحركت يد الضابط نحو سماعة التليفون، رفعها إلى أذنه وأدار القرص، ثم ذكر رقما، بعد دقيقة.. دخل شاب إلى الغرفة، وكان يحمل دوسيها قدمه إلى الضابط فى صمت ثم انصرف.. وقدم الضابط الدوسيه إلى ماهر.. وما أن فتحه حتى فغر فاه دهشة.

■ ■ ■

أغلق ماهر عبد الحميد الدوسيه.. ورفع عينيه إلى وجه الضابط الصامت!

لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله ماهر.. كان الدوسيه يحوى كل شيء، تنهد مرتين أو ثلاثاً أرتياحاً، حمد الله أنه جاء فى

الوقت المناسب، تحولت خلاياه إلى أذن تسمع وعندما مال عليه الضابط، كان ماهر على استعداد كامل..

ولقد بسط خالد ــ وهذا هو الاسم الذى نختاره للضابط الأسمر الشاب ــ المسألة أمام ماهر، ثم عرضها عليه.

ففى مثل تلك الحالات لا يصبح أمام جهاز المخابرات سوى طريق من اثنين.. أما أن يبلغ النيابة لتلقى القبض على الجاسوس، وأما أن تطلب من المبلغ ــ إذا ما رأت فيه ورأى هو فى نفسه الصلاحية والقدرة ــ أن يستمر فى التعامل مع العدو لحساب مصر هنا يصبح المبلغ عميلاً مزدوجاً.

وفى ذلك اليوم أصبح ماهر عميلاً مزدوجاً.

الذى لاشك فيه، أنك لو جلست إلى ماهر، فلسوف يعترف لك أن ثمة دهشة قد أصابته عندما فتح الدوسيه وأطل على ما فيه..

وانى على يقين من أن رعدة قد سرت فى جسد ماهر كله، وأن رعبا حقيقيا قد أصابه فى نفس اللحظة التى فتح فيها ذلك الدوسيه وأطلع على ما فيه.

لم تكن الرعدة أو ذلك الرعب لأن المفاجأة غير متوقعة، بل لأن الانسان عادة ما يصاب بها عندما يكتشف فجأة.. أنه كان يسير طوال الأشهر الماضية، عارياً من ملابسه!..

ويوم وصل جهاز الارسال اللاسلكى.

يوم سقط القناع نهائيا عن وجه «الغريب» فإذا به عميل اسرائيلى فى قلب القاهرة!!

■ ■ ■

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا.. عندما انتهى ماهر من قصته.. وكانت الغرفة لاتزال ساكنة صامتة، وعينا ضابط المخابرات المصرى تسمعان، كما كانت أذناه تريان، أما شفتاه فكانتا مطبقتين.

وصمت ماهر... ونظر إليه!

وتحركت يد الضابط نحو سماعة التليفون، رفعها إلى أذنه وأدار القرص، ثم ذكر رقما، بعد دقيقة.. دخل شاب إلى الغرفة، وكان يحمل دوسيها قدمه إلى الضابط فى صمت ثم انصرف.. وقدم الضابط الدوسيه إلى ماهر.. وما أن فتحه حتى فغر فاه دهشة.

■ ■ ■

أغلق ماهر عبد الحميد الدوسيه.. ورفع عينيه إلى وجه الضابط الصامت!

لم يكن هناك مايمكن أن يقوله ماهر.. كان الدوسيه يحوى كل شىء، تنهد مرتين أو ثلاثاً أرتياحاً، حمد الله أنه جاء فى

الوقت المناسب، تحولت خلاياه إلى أذن تسمع وعندما مال عليه الضابط، كان ماهر على استعداد كامل..

ولقد بسط خالد ــ وهذا هو الاسم الذى نختاره للضابط الأسمر الشاب ــ المسألة أمام ماهر، ثم عرضها عليه.

ففى مثل تلك الحالات لايصبح أمام جهاز المخابرات سوى طريق من اثنين.. أما أن يبلغ النيابة لتلقى القبض على الجاسوس، وأما أن تطلب من المبلغ ــ إذا ما رأت فيه ورأى هو فى نفسه الصلاحية والقدرة ــ أن يستمر فى التعامل مع العدو لحساب مصر هنا يصبح المبلغ عميلاً مزدوجاً.

وفى ذلك اليوم أصبح ماهر عميلاً مزدوجاً.

الذى لاشك فيه، أنك لو جلست إلى ماهر، فلسوف يعترف لك أن ثمة دهشة قد أصابته عندما فتح الدوسيه وأطل على ما فيه..

وانى على يقين من أن رعدة قد سرت فى جسد ماهر كله، وأن رعبا حقيقيا قد أصابه فى نفس اللحظة التى فتح فيها ذلك الدوسيه وأطلع على ما فيه.

لم تكن الرعدة أو ذلك الرعب لأن المفاجأة غير متوقعة، بل لأن الانسان عادة ما يصاب بها عندما يكتشف فجأة.. أنه كان يسير طوال الأشهر الماضية، عارياً من ملابسه!..

لم يكن ما يحويه الدوسيه مجرد معلومات، عن ماهر وعن علاقته بالغريب، لكن الدوسيه كان يحوى ماهر كله .. بداخله وخارجه ..

ولكى أوضح الأمر قليلاً، فلقد أفلتت من ماهر ذات لقاء بينى وبينه جملة تشبثت بها، قال: «على أى حال هم حاولوا معايا بكل الطرق .. بكل الطرق» ..

كان يعنى بحديثه هذا الاسرائيليين، وأن كل الطرق هذه كانت تحوى بالتأكيد أسراراً خاصة .. وعندما يعلم ماهر من «الغريب» ذات يوم أن مندوبا سوف يصل من المانيا يحمل اليهم أموالاً، فلقد كان من الواجب أن يحتفيا بهذا المندوب، خاصة إذا ما تصادف وكان المندوب فتاة شقراء زرقاء العينين رائعة الجمال.

كان الاسرائيليون أذكياء، كان يعطونه خمسمائة جنيه كل شهر، لكنهم كانوا يفتحون أمامه أبواب الانفاق على مصرعيها حتى يظل دائما فى حاجة إلى المال واليهم .. ولقد كان شيئاً باهراً أن يغازل ماهر فتاة أعمال شديدة الجدية، شديدة الجمال، تضع على عينيها نظارة طبية تضفى عليها سحرا آخاذا .. فتاة من ذلك النوع الذى تشعر أمامه خاصة إذا ما كنت شرقيا ومن دولة مهزومة ــ بالعجز تماما ــ وباستحالة الوصول إليه.

كم أدارت القبلة الأولى رأسه.

خلف زجاج النظارة الطبية تطلعت إليه عينان شديدة الزرقة، عميقتان كالمحيط زاخرتان بالأسرار، تفيضان بالغموض. تلك الأسرار وذلك الغموض كانت تلهب مشاعر فتانا وتحول ماهر إلى عاشق عظيم خلال الأيام التى أنفقتها «مارلين» فى مصر.. حتى إذا سافر، أحس صاحبنا بالفراغ يحيط بكل شيء، فأحس الغريب: ودفع إلى طريقه بسيدة أخرى صديقة لزوجته وضعها فى طريق الشاب الملتهب بالحماس، فنمت بينهما قصة حب.. قصة كانت مدعمة بالصورر فى الدوسيه الذى كان ماهر يقلب أوراقه بين يديه.

حتى الآن، كانت المخابرات الاسرائيلية قد وقعت فى خطأ فادح.

بداية .. لقد كان انتقاء ماهر أو التقاطه شيئاً عظيماً، فلقد تمثلت فيه كل مقومات الجاسوس العظيم دون شك، كان لقطة لا تتكرر فى عالم الجاسوسية إلا نادراً.. ولكن.. لو أن الغريب كان «فرازا» متمرسا واعيا ملما بدقائق عمله، لما نصح بتجنيد ضابط كماهر، كان قد استطاع رغم كل السخط الذى كان ماهر يبديه أن يعرف سر هذا السخط الذى أصابه.. فلم يكن سخط ماهر منصبا على بلده.. كان السخط منصبا على أسباب نكسة هذا البلد.. ولو أن الذى التقى بماهر كان

«فرازا» ماهرا، ولو أن رجال المخابرات الاسرائيلية الذين وفدوا على مصر لمقابلة ماهر كانوا متمكنين من عملهم، لنصحوا ــ بالقطع ــ بالابتعاد عن هذا الضابط الذى كانت مصر بالنسبة له هى أبده وأزله، هى بدايته ونهايته.. كانت مصر هى عشقه وأمله، فكيف يخونها؟

هنا يمكن لأبسط العقول البشرية ذكاء أن يكتشف الفرق بين المصريين والاسرائيليين وإذا لم نكن فى مجال تفاخر، إلا أن الموضوعية تستلزم منا دراسة أسلوب مخابرات كل منها، لنتعرف على معالم الطريق بلا تحيز.. وإذا كان «فراز» الاسرائيليين وضباط اختبارهم قد أخطأوا فى اختيار نوع عميلهم، إلا أن «الفراز» المصرى اكتشف فى نفس الشخص، ملكات تفوق بكثير ملكاته كجاسوس فقط.

ففى ذلك الصباح الربيعى، عرض خالد على ماهر أن يستمر فى اللعبة.. ووافق ماهر دون تردد.

فى ليلة حارة من ليالى شهر أغسطس، كانت احدى الطائرات التابعة لشركة «لوفتهانزا» تغادر مطار القاهرة الدولى فى طريقها إلى فرانكفورت بألمانيا الغربية.. وعلى الطائرة كانت ثمة سائحة ألمانية تعود وطنها بعد رحلة سياحية استمرت عشرة أيام قضتها السائحة ما بين القاهرة والأقصر ــ فى حر أغسطس ــ ولم تكن هذه السائحة تحمل سوى حقيبة صغيرة

ذات لون أخضر.. كانت الحقيبة أصغر من كل هذا الاهتمام الذى كان يحوطها من بعيد فى سرية وصمت، اهتمام لم يشعر به أحد على الاطلاق.. غير أن الحقيبة الصغيرة كانت تحمل تمثالاً فرعونياً صغيراً من تلك التماثيل المقلدة التى يصنعها أحفاد الفراعنة فى الصعيد.. ولم تكن الألمانية الجميلة، مهربة آثار لأن التمثال كان بلا قيمة، فوق أن ثمنه كان لا يتعدى الجنيه الواحد.

غير أن أهمية هذا التمثال كانت تكمن فى التجويف الذى بداخله، والذى كان يحوى فيلما صورت عليه معلومات عسكرية غاية فى الأهمية.. وكانت هذه المعلومات تبين بوضوح احدى الثغرات فى صفوف الجيش المصرى على الضفة الغربية لقناة السويس.. كانت هذه المعلومات معدة ومصورة بيد ماهر.

وطوال الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت هذه الفتاة مبتسمة.. بين الحين والحين كانت تقرأ فى كتاب يحمل عنوان احدى مسرحيات الكاتب الأمريكى «آرثر ميللر» ولقد ذهبت ــ طوال الرحلة ــ مرتين إلى الحمام، وشربت قهوة سوداء ودخنت تسع عشرة سيجارة، ولم تأكل شيئاً.

وفى مطار فرانكفورت تبادلت مع موظف الجمارك كلمات مجاملة خافتة، ثم حملت حقيبتها الخضراء الثمينة واستقلت احدى سيارة الأجرة إلى بيتها.. كانت تسكن شقة صغيرة مكونة من

غرفة واحدة كبيرة قسمت إلى غرفة للنوم وأخرى للطعام والمعيشة ، وكانت الشقة فى الدور الحادى عشر من احدى العمارات السكنية فى المدينة المزدحمة .. ورغم أن الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت طويلة ، ورغم أن الفتاة كانت قد غابت عن بيتها عشرة أيام ، الا أنها لم تمكث فيه لأكثر من نصف ساعة غادرت البيت بعدها ولم تكن تحمل الحقيبة الخضراء ، كانت تحمل صندوقا مغلفا بورق مصرى من ذلك النوع الذى تغلف به الهدايا ، كما أنه كان مزدانا بشريط أحمر من النايلون صنع هو الآخر فى مصر .. غير أن المصادفة الغريبة ، أن الصندوق كان فى حجم التمثال الفرعونى القديم .. وبعد ٧٥ ثانية تماما توقفت سيارة أجرة أمام الفتاة فركبت وحملتها السيارة إلى فيللا فى أحدى الضواحى ..

كانت الفيلا تقبع فوق ربوة منعزلة تحيط بها حديقة صغيرة زرعت بها بعض الورود الثمينة ، التى كان يحرسها ثلاثة من الكلاب الالزاسية المتوحشة .. ولقد اختفت الفتاة داخل الفيلا وبعد أربع عشرة دقيقة غادر الفيلا رجل خط الشيب شعره ، لكنه كان بادى القوة ، يحمل حقيبة سفر صغيرة ، واستقل الرجل سيارة مرسيدس كانت تقف أمام الفيلا ، وغادرها فى المطار دون أن يعنى باغلاقها .. وعندما وقف أمام ضابط الجوازات ، اتضح أنه يحمل جواز سفر اسرائيليا ، وكان مسافرا

فى نفس الليلة على احدى طائرات شركة « العال » المتجة إلى تل أبيب .

ولقد حدث بعد ذلك بيوم أو اثنين ، أن صدرت أوامر سرية بانسحاب احدى نقط الحراسة على الضفة الغربية لقناة السويس التى كانت تربط بين موقعين مدججين بالسلاح .. صدر الأمر باتمام الانسحاب نهارا وترك ذلك المكان خاليا ..

على الضفة الأخرى من قناة السويس ـ بعد ذلك بعدد لا بأس به من الأيام والليالى المظلمة ـ كانت ثمة حركة غير عادية قد بدأت عندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف .. كان من الواضح أن هذه الحركة لاشباح تسللت إلى المياه فى هدوء مثير .. وعلى طول الشاطىء ولمسافة معينة ، كانت الاشباح تهبط من الضفة الشرقية إلى مياه القناة لتعبرها إلى الضفة الغربية ، وتصعد اليها فى نفس المكان الخالى من الحراسة ، صعدت الاشباح الآتية من الضفة الشرقية فى خفة وانتحت ركناً تظلله شجيرات كانت تطرح فى الماضى فاكهة ، وراحوا يستعدون .. حتى إذا اكتمل عددهم وعدتهم ، بدأت حركتهم .. كانوا يبدون وكأنهم يعرفون طريقهم بدقة متناهية .. وما أن قطعوا من الطريق أمتاراً .. حتى اهتزت أوراق الشجر لزئير مزق الظلام والصمت معا .. زئير رجال وطلقات مدافع سريعة ونصال مدى قاتله .. و.. و.. وكانت المعركة رهيبة ، أبيدت فيها الأشباح الآتية من الضفة الشرقية عن آخرها .

فى تلك الليلة .. انتفخت أوداج ماهر زهوا ... كان قد بدأ يذوق طعم الانتصار ..

■ ■ ■

رغم هذا كانت ثقة الاسرائيليين بماهر قد فاقت كل حد .. كان « الغريب » قد تقهقر إلى المركز الثانى ، وتقدم ماهر إلى المركز الأول ليدير الشبكة ادارة كاملة .. كان الاسرائيليون قد علموه الارسال اللاسلكى على أحدث الأجهزة التى عرفت حتى هذا الوقت ، وكانوا قد دربوه على الكتابة بالحبر السرى !! لكن المصريين عرفوا كيف يستغلون ما علمه الاسرائيليون اياه !! ..

ولقد توالى وصول الرسل من ألمانيا ـ فبعد مارلين وصلت « أورزولا » أو « أوزل شى » كما وصلت « باربرا » .. و .. ولقد كن فتيات انتقين بعناية فائقة .. كانت لديهن القدرة على ممارسة الحب كأنهن يذبن غراما ، فى نفس الوقت الذى يحسبن فيه كل حركة وكل سكنة وكل نظرة تصدر عن ماهر .. وعلى كل فلم تكن هذه أزمته .. كانت أزمته الحقيقية تكمن فى أنه يجب أن يمارس الحب بنفس القدر من الحرارة ولقد كان هذا عسيرا للغاية ، فكيف يمارس الإنسان الحب وهناك عيون ترقبه وهو عار تماماً ؟!!

ان أى تغير فى أسلوبه ، أو سلوكه ، مهما كان ضئيلاً ، كان كفيلاً بأن يحسب عليه وأن يبعث بالشك إلى عقول الاسرائيليين .

ولقد كان خالد استاذاً عظيماً لهذا الجاسوس المبتدىء .. ورغم أنى لم أتلق أية اجابة من ماهر عن سؤالى : ان كان قد زار اسرائيل أم لا ؟ .. إلا انى على يقين من أنه بالفعل قد زار اسرائيل فى تلك الأيام .. وإذا كان ماهر قد اكتسب ثقة الاسرائيليين إلى حد أنهم اعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً .. إلا أنه لم يكتسب الثقة بتلك المعلومات المغلوطة والتى أودت بأرواح الكثيرين من رجالهم .. بل بتخطيط محكم وضعه له « خالد » الذى كان قد تحول مع الأيام من ضابط مخابرات يوجه واحداً من المتعاونين معه فى عملية من أخطر عمليات التجسس إلى استاذ وصديق حميم .. كان خالد يمد ماهر فى بعض الاحيان بمعلومات صحيحة تماماً عن الجبهة المصرية ، لكنها معلومات لا خطر منها .. ومما لا شك فيه ، أن الاسرائيليين امتحنوا هذه المعلومات وتأكدوا يوما بعد يوم من صدقها .. وهكذا استحوذ ماهر على تلك الثقة ..

■ ■ ■

ومضت ثمانية أشهر ..

ثمانية أشهر أصبح ماهر فيها واحداً من الجواسيس . الذين اعتمد عليهم اسرائيل فى القاهرة اعتمادا عظيما .. ثمانية أشهر

أغرقته فيها مخابرات اسرائيل بالمال والهدايا.. ولقد انتجت مصانع «رولكس» بسويسرا ساعة خصيصاً باسم ماهر، وجاءته الساعة من سويسرا ومعها «براءة» مطبوعة ومختومة بأرقام سرية تقول ان هذه الساعة صنعت خصيصاً للسيد/ ماهر.. غير أن الشيء الذى حزن له ماهر حزناً شديداً هو السيارة..

فذات يوم قرروا اهداءه سيارة جديدة.. زف إليه الغريب الخبر فطار من الفرح.. كان يومها يمتلك سيارة قديمة موديل ١٩٥٨ وهاهى فرصة ذهبية لأن يمتلك سيارة حديثة من أفخر الأنواع.. غير أن خالد طلب منه أن يرفض، واحتج ماهر، لكن خالد كعادته أصر على الرفض.. وبعد أن رفض ماهر بحجة أن الثراء المفاجىء قد يكشفه ويلفت إليه الانظار، عرف أن خالد حماه من مأزق، فلقد كان الامر كله فخا نصبته له مخابرات اسرائيل لتمتحن ولاءه.. فإن الجاسوس الذى لا يأبه بمثل هذه الأشياء، لابد أن يكون هناك مايحميه.. ومن يحمى جاسوساً سوى جهاز آخر للمخابرات؟..

سألنى ماهر عبدالحميد ذات لقاء: «هل تعرف أن المخابرات المصرية هى أقدم جهاز للمخابرات فى العالم؟ وكان جوابى الصمت.

واستمر ماهر فى فذلكة تاريخية يوضح الأمر:

فى جميع مدارس المخابرات فى العالم، أيا كانت هذه المدارس، أول مايتعلمه الطالب هو: أن أقدم وثيقة مخابرات عرفت حتى الآن، هى الوثيقة التى قدمتها «ادارة المخابرات المصرية» للفرعون «مفتاح» ــ ١٤ قرنا قبل الميلاد ــ تحدد له طرق الاقتراب من مدينة «يما» التى كانت تقع جنوب «مجدو» بستة عشر كيلو مترا.. وتنصح المخابرات المصرية فرعون بأن يسلك الطريق الأوسط.

وإذا كانت المخابرات عملية خبرة فى الاساس تتضاعف مع الممارسة يوما بعد يوم.. فان خبرتنا نحن المصريين تفوق أية خبرة أخرى فوق ظهر الكرة الأرضية.

بمعنى: أننا يوم أن خدعنا العالم أجمع يوم ٦ أكتوبر، وأن أى انسان على وجه الأرض لم يكن يعرف ساعة الصفر بأى معنى من المعانى سوى هؤلاء الذين كان عليهم أن يعطوا اشارة البدء.. مرده إلى أننا أقدم ناس فى هذه اللعبة.

■ ■ ■

ذات يوم طلبت المخابرات الاسرائيلية من ماهر أن يسافر إلى اسرائيل.

كان ماهر قد سافر بالفعل قبل ذلك. هذا مايؤكده لى حديثه المتناثر عن اسرائيل وعن تكوين جهاز مخابراتها، وعن

التركيب الهش لمجتمعها.. وقد يكون هذا كله نتيجة لدراسته التى انكب عليها فى شغف ونشاط عظيم فيما بعد بالادارة «٤٤» التى تخصصت لفترة فى الحرب النفسية ضد العدو...
ولكن هل يتأتى أن تأتى الصورة التى كتبها عن تل أبيب والقدس فى كتابه «المفاجأة» تلك الصورة التى تنقل إلى القارىء ألوان الشوارع والبيوت والمتاجر والمحلات بل ورائحة المصانع والبارات هل تتأتى مثل هذه الصور لكاتب دون أن يراها ويعايشها خاصة إذا ماكانت لدولة معادية يبدو من المستحيل للمواطن العادى أن يزورها ؟.. وعلى كل فإن طلب المخابرات الاسرائيلية فى ذلك الوقت، كان يحمل نذيرا غامضا.

كانت الفخاخ التى تنصبها المخابرات المصرية عن طريق المعلومات التى كان ماهر يمدهم بها قد تتالت، وكان أبسط ما يمكن أن يقال: أن ماهر فى رحلته هذه إلى اسرائيل سوف يوضع تحت اختبارات رهيبة ومضنية لمعرفة ما اذا كان على علاقة بالمخابرات المصرية أم لا.

وسأله خالد كعادته: «أنت رأيك ايه؟.. ورد ماهر: اسافر!.. فابتسم خالد.

ابتسم تلك الابتسامة التى كان ماهر قد بدأ يعرف عن يقين، أنها تحمل وراءها انباء غير عادية.. وعندما ناقش خالد

كل الاحتمالات الممكنة وراء طلبه للسفر، كان ماهر يبدى حماساً أزكته فى نفسه تلك الانتصارات المتتاليةفى السفر وفى دخول تلك الاختبارات ــ مهما كانت قسوتها.. ولقد كان واثقاً من الانتصار.

ومضى ماهر دون أن يأخذ رداً من خالد.

وفى اليوم التالى كان عليه أن ينتظر مكالمة تليفونية فى الثانية عشرة ظهراً فى مكان ما بالقاهرة.

أغلب الظن أن هذا المكان مقهى بلدى فى وسط البلد كان ماهر يلتقى فيه مع بعض زملاء الدراسة، وكانوا يلعبون الطاولة وأغلب الظن أيضاً أن ماهر كان زبوناً فى هذا المقهى من أيام الثانوى.

زعق الجرسون باسم ماهر فنهض ليضع السماعة على أذنه، وجاء صوت خالد:

«العربية راحت للميكانيكى».

وساد الصمت..

يقينى أن أبسط ما شعر به ماهر هو خيبة الأمل.. كان معنى تلك الجملة التى يطلقون على مثلها فى عالم المخابرات اسم «الكود» أن العملية انتهت.

وعاد صوت خالد فى التليفون: «سامعنى»؟..

«أيوه»..

قالها ماهر فى أسى، وظل ممسكاً بالسماعة كأنه ينتظر شيئاً، غير أنه لم يسمع سوى تحية مقتضبة رد بمثلها، ثم وضع السماعة على الطرف الآخر.

■ ■ ■

فى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، ألقت النيابة القبض على «الغريب».

وفى منزله ضبطت كل الأدلة المادية، الكاميرا وجهاز الارسال وأدوات الكتابة بالحبر السرى.. وكانت المفاجأة التى أذهلت الغريب، أنهم كانوا لا يفتشون البيت بل يتجهون مباشرة إلى حيث ضبطت الأجهزة، ويخرجونها فى صمت وأدب.

جازيــه المصريــة



عزيزتى..

أكتب إليك هذا الخطاب لأرد على سؤال لك عن معنى «البطولة».. ولست أدرى فى الحقيقة كيف يمكن أن أعرف البطولة، فمسألة التعريف هذه مسألة تحتمل الكثير من المناقشات، غير انى ــ مثلاً ــ لا أعتبر «محمد على كلاى» بطلا كما يطلق عليه الناس، وليس هذا من نوع «خالف تعرف» كما قد يتبادر إلى لسانك السليط الذى تعودت دائماً أن تهاجمينى به فى مناقشتنا الصاخبة.. ولكنه نوع من الاقتناع بأن هذا الشاب القوى العضلات الذى خلق هكذا مفتول الجسد والقوام، والذى «تدرب» على لكم الذين ينازلونه والانتصار عليهم، لا يمكن أن يكون بطلاً لأنه أدى عمله على الوجه الأكمل.. أما البطولة بمعناها الحقيقى، فلقد عثرت عليها وأنا أجلس إلى صديقى ضابط المخابرات المصرى، عثرت عليها فى قصة «جازية المصرية».

ولست فى حاجة طبعاً لأن أذكرك دائماً بأن الأسماء التى نوردها فى مثل هذه القصص أسماء وهمية، فالابطال الحقيقيون لا يعنيهم أن تسلط عليهم الأضواء، ولا أن يصفق لهم الناس.

■ ■ ■

ولقد وقعت قصة جازية فى سنة من تلك السنوات التى أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧ فى تلك الأيام التى اختلط فيها كل شىء بكل شىء، تلك الأيام التى فقدنا فيها الاتزان كما فقدنا فيها الكثير من مقومات حياتنا.. تلك الأيام التى انفتح فيها الباب لشراء السيارات من الخارج والعودة بها، فراجت تجارة السيارات، كما راج السفر إلى الخارج فى جحافل لم تكن تدرى إلى أين هى ذاهبة، وفى وسط القاهرة وفى أحد شوارعها، كانت جازية تسعى بحثاً عن عمل.

وككل فتاة تبدأ حياتها.. تمنت جازية أن تعمل صحفية.

وبالفعل استطاعت أن تخطو تلك الخطوة الأولى التى خطوناها جميعاً فى ذلك العالم المفعم برائحة الحبر والورق، والتحقت باحدى دور الصحف كمحررة بالقطعة.. والمحرر بالقطعة هذا ــ ان لم تعلمى ــ هو صحفى غير معتمد، يعتمد أساساً على نشاطه فى كتابة الموضوعات، وفى جمع الأخبار، على أن يتقاضى على ماينشر له منها أجراً زهيداً.

ولست أدرى ما الذى حال بين جازية وبين التعيين، ذلك أنها كانت من ذلك النوع من الفتيات الذى لا يأبه بشىء، ولا يقيم وزنا إلا لما فى رأسه من أهداف.. لم تشعر جازية فى الدار الصحفية بأن عليها أن تمشى جنب الحيط.. بل راحت تعمل فى المجلات حينا، وفى الاعلانات حينا آخر، كانت تنطلق كصاروخ لا يعرف هدفه، وقد كنا كلنا كذلك فى مثل الفترة التى كانت تمر بها، وكان هذا بالذات، باعثا عن اثارة الأقاويل حولها ووجدت شخصيتها عند أصحاب الألسنة السليطة، وعند أحزاب النميمة المعتمدة الكثير مما يمكن نسج حولها.

هكذا وجدت «جازية المصرية» نفسها، تتخبط بحثا عن لقمة عيش كريمة تجعل منها عضوا صالحا فى المجتمع، لكنها ــ بكل أسف ــ ورغم كل المجهود الذى بذلته فى كل اتجاه، لم تعين.. وظلت محررة بالقطعة تعتمد على قدميها فى مسح شوارع القاهرة بحثا عن خبر أو اعلان.

■ ■ ■

فى أحيان كثيرة تكون بذرة البطولة كالقلب، كامنة فى صدر الإنسان، تمده بالحياة دون أن يشعر بها، وكم كنت أتمنى أن التقى بجازية، وحتى عندما عرض على صديقى ضابط المخابرات المصرى أن التقى بها.. رفضت بعد تفكير،

فان الابطال الحقيقيين كالفنانين.. اننا نضع حول الفنان هالة من الضوء يصنعها فى وجداننا فنه، ويظل الفنان تمثالاً من الجمال حتى نلتقى به.. فإذا التمثال يتحطم، وإذا الفنان انسان له من النقائص أكثر مما للآخرين ربما.. ولقد خفت أن التقى «بجازية» حتى لايتحطم التمثال، فإن ماصنعته تلك الفتاة المصرية، ببساطة ودون طبول تدق، أكبر من أن يصبح خلقا ثابتا أو ضوءاً يشع من حول رأسها.

كانت جازية قد استطاعت خلال الشهور الأخيرة من ذلك العام أن تحقق من الاعلانات التى جلبتها إلى الدار، بضع مئات من الجنيهات، ومع جحافل الزاحفين إلى أوربا، ومع طابور السيارات المستعملة الذى ملأ أرصفة موانىء ايطاليا واليونان ولبنان وفرنسا وألمانيا، قررت «جازية» أن تبحث لنفسها عن مورد رزق، عن سيارة..

والله وحده يعلم ما الذى كان يدور فى رأسها، هل كانت تنوى شراء السيارة لكى تعفيها من اللف والدوران فى شوارع القاهرة جريا وراء خبر أو اعلان، أم كانت تنوى أن تصنع من السيارة «تاكسيا» تربح منه كل شهر بضعة عشرات من الجنيهات تعينها على الحياة.

على كل فان الناس فى تلك الأيام كانوا يشترون السيارة أولاً.. ولقد سمعت «جازية» عن «صادق» وقال لها الناس

أنه ساعد الكثيرين فى شراء سيارات، وكانت سعيدة الحظ أن عثرت على قريب للسيد «صادق» قادها إليه.

كان صادق هذا، مثله مثل الكثيرين ممن ينبتون فى المجتمع، فى كل مجتمع وأى مجتمع «جوكر» كان رجلاً «بتاع كله».

كان موظفاً وتاجراً وسمساراً.. و..

كان «صادق» فى الشهور الأخيرة، قد عرف طريقه إلى الخارج، وفى الخارج عرف كيف يلتقط لقمة العيش، ولكن من أين.. هذا مالم يكن يعلمه أحد، وهذا مالم تكن تعلمه جازية.

ودون اثارة.. أو محاولة للاثارة، كان «صادق» فى حقيقته «جاسوسا».

لاتفزعى ياصديقتى فإن الجواسيس لاتنبت فى افواههم أنياب، ولكى نكون قوما متحضرين علينا أن نعيد النظر إلى الصور التى نصنعها لبعض الناس فى أذهاننا.. وإذا كان العصر الذى نحن مقبلون عليه، هو عصر الكومبيوتر، فإن التعقيد سيصبح ـ دون شك ـ هو السمة الواضحة فى حياة البشر، وكان الله فى عون الأجيال القادمة.

لاتفزعى اذن، فإن الجاسوس عادة إنسان ناعم الملمس، رقيق الحاشية، تحتم عليه وظيفته أن يعرف كيف يعامل

الناس، كيف يسيطر عليهم، وكيف يكتسب ثقتهم.. وهكذا التقت جازية بصادق، قدمت له نفسها: «انها صحفية، وهى تريد أن تشترى سيارة..

وإذا كانت مهنة الجاسوس، هى مهنه البحث عن الاخبار، فهل هناك صيد أكبر من صحفية مهنتها هى أيضاً البحث عن أخبار.

هنا تبدأ اللعبة.. وهنا خطت «جازية» خطوتها الأولى نحو المجهول.

■ ■ ■

بعد شهر بالضبط من تلك الليلة التى التقطت فيها «جازية» بصادق فى القاهرة..

كانت تهبط من الطائرة فى مطار روما.. وكان صادق بجوارها يحنو عليها ويساعدها، كان خلال المرات التى التقى فيها بجازية فى القاهرة، قد ألقى بضعة أسئلة، أسئلة شديدة البراءة فى مظهرها.. اسئلة تدور حول عملها ورؤسائها، حول علاقاتها والمسئولين الذين تعرفهم، ونحن شعب يحب الدردشة.. وفينا ـ كما فى كل بلاد العالم ـ من يحب أن يظهر كعالم ببواطن الأمور.

وإذا كانت تلك النكسة قد اطلقت الألسنة من عقالها فى تلك الأيام، فلقد كان الحديث فى الطائرة بين صادق وجازية يتجه إلى كل اتجاه، عن النكسة، عن الجيش، عن اسرائيل، عن..

لا...

لنتوقف قليلاً عند «اسرائيل».. ولنلق نظرة إلى الخلف، لنرى الصورة على حقيقتها.

لنتوقف قليلاً لكى نرى كيف كنا «نرى» اسرائيل فى تلك الأيام..

لنتوقف قليلاً لنتذكر كيف كنا ننظر إلى أنفسنا.

قلة قليلة جداً فى مصر، كانت تعلم طبيعة اسرائيل على حقيقتها، كانت تعرف حقيقة تكوين المجتمع الاسرائيلى، والجيش الإسرائيلى، والفرد الاسرائيلى... كانت تعلم حقيقة انتصار اسرائيل الذى اهتز له العالم، وطنطنت له الدنيا، وهلل له الشامتون والحاقدون والموتورون.. أو.. ولا داعى للاسترسال فلقد كان المصريون فى تلك الأيام يشعرون بعجز لم يشعر به شعب عانى من الهزيمة.

فى الطائرة، كما كان الأمر فى القاهرة لم يكن الحديث بين «صادق» وبين «جازية» قد أخذ مساراً واضحاً، كل

ما فى الأمر، أن الطعم كان يلقى اثناء الحديث، وبذكاء المدرب ليصيب نقطة الضعف المتقيحة فى صدور المصريين فى تلك الأيام، ليصيب فى نفس جازية موطن الهزيمة.

فى روما.. أسلمت جازية قيادها بالكامل إلى «صادق».

كان وهو فى القاهرة.. قد تعهد بأن يتعهد بكل شىء.

وكانت وهى فى القاهرة.. قد أعطته كل مالها، كل ما تملك.

ووجدت جازية نفسها فى أحد فنادق «روما» الفاخرة.. قادها «صادق» عبر هول الفندق فى مصعد يعمل به فتى فى جمال الملائكة، صعد بها إلى طابق يصبح وقع خطوات أرضه همسا، وقف بها إلى غرفة تحول أحلام من كان مثلها أو مثلى ومثلك إلى حلم سينمائى ملون.. ثم تركها ومضى على موعد.

بالله!

كيف يمكن أن تشعر فتاة مثل «جازية» فى ليلة كتلك الليلة الأولى التى قضتها فى روما.

تركها «صادق» ومضى لعمله فى روما.. تركها على موعد ووجدت نفسها ترفل فى غرفة حريرية فى فندق عالمى..

اغتسلت وبدلت ملابسها وغادرت غرفتها وهبطت إلى الفندق وترددت ثم حسمت أمرها وانطلقت إلى شوارع روما البهيجة.

لعلك الآن يا صديقتى تتعجلين الأمر، لكنى فقط أريد أن أصل بك إلى هذا الاحساس الذى يصيب الانسان ــ خاصة إن كان من دولة تفعل المستحيل لكى تنمو ــ وهو يرى البذخ من حوله يبهر البصر، وإذا كان لكل شعب من شعوب الأرض ميزاته فإن مايتميز به الشعب الايطالى هو أنه يتقن فن الحياة.. فن تنسيقها وممارستها معا والذى لاشك فيه أن «جازية» قد انبهرت بما رأت، وأن رأسها قد ازداد دواره وعيناها تضيعان بين الأضواء التى تخطف البصر، ومظاهر البذخ البادية، ثم.. ثم تلك السيارات التى كانت تنزلق فى الشوارع بلا ضوضاء، وتلك الأجساد الفارهة المكسوة بآخر صيحات الموضة.. و.. وعادت جازية إلى الفندق.. وقضت ليلة هدهدتها فيها الأحلام.

سؤال واحد كان يلح عليها: هذه دولة هزمت، فمتى تقف مصر ــ مثلها ــ على قدميها، ومتى، ومتى تصبح الحياة فيها مثل الحياة هنا؟

■ ■ ■

فى اليوم التالى جاءها «صادق» كملاك رحمة يهبط من السماء ليقودها إلى الجنة.. جاء ليقودها إلى حيث اشترت

سيارة فارهة، سيارة.. سيارة نظيفة، لامعة، جميلة ذات جسد براق ومقاعد وثيرة، سيارة قادتها «جازية» فى شوارع روما، فلقد كانت تعرف كيف تقود سيارة، كواحدة من آلهة الاغريق القدامى.. وأمام الفندق توقفت وهبطت، وهرول الحارس ليفتح لها الباب، ونفذت إلى الهول خلفها «صادق».. و.. وهل تستطيعين أن تتخيلى هذا المشهد السينمائى الذى يدير الرأس؟

فى بهو الفندق جلست «جازية» بجوار «صادق» وراحا يتجاذبان أطراف الحديث.. من وسط سحابات الحلم الجميل كان ثمة سؤال يتأرجح فى رأس جازية ويكاد يبدد الحلم الجميل.. لقد ابتلع ثمن السيارة كل ما جاءت به من القاهرة، كل ما أعطته لصادق، فمن أين تدفع أجر الفندق، من أين تأكل، من أين تأتى بثمن تذكرة العودة، من أين تدفع ثمن شحن السيارة.. بل هل آن للحلم الجميل أن ينتهى، وبمثل هذه السرعة، هل تعود إلى القاهرة قبل أن تستنشق هواء روما المفعم بالبذخ!

غير أن حديث «صادق» كان يأخذها بعيدا بعيدا، كان حديثا مطمئنا، كان دردشة حول مصر، حول المال، حول الأعمال، حول الفن، حتى إذا حان موعد الطعام اصطحبها فى سيارتها إلى أحد المطاعم الفاخرة، مرة أخرى تنزلق كالحلم

فى شوارع روما حيث المرور منتظم، حيث كل شىء يجرى بدقة، أمام المطعم توقفت، هرول النحاس ليفتح لها الباب، دلفت إلى المطعم لتحتويها الموسيقى التى تنبعث من الهواء، من كل ذرة فضاء، من داخلها، من حديث صادق السلس الرقيق، من صوته الواثق الهادىء.. وإذا كان صادق يعرف كل شىء، فلابد أنه يعرف أنها ـ الآن ـ مفلسة ولابد أنه سوف يتدبر الأمر، ولسوف ترد له الجميل فى القاهرة ممتنة.

ومن كان مثل «صادق» فلابد أن له أعمالاً فى روما.. عاد بها إلى الفندق واستأذن منها فى تلك الليلة، على موعد فى اليوم التالى.

وتركها صادق واختفى.. لم يختف ليلة، أو يوما أو يومين، بل اختفى اسبوعاً كاملاً..

■ ■ ■

عزيزتى...
هل تعرفين كيف يجندون جاسوسا؟

أن المسألة بعد أن عرفتها ودرستها طوال ما يقرب من عام، بسيطة كل البساطة.. ليست معقدة أو مركبة.. أنهم إذا ما وقع اختيارهم على انسان ما، بحثوا عن نقطة الضعف فيه،، ثم بدأوا يضغطون عليها، ثم إذا ما سيطروا عليها تماماً، أصبحوا

مسيطرين عليه فيستجيب هذا كل ما فى الأمر.. أن استجابة واحدة، لامر واحد، تنقل الإنسان من عالم إلى عالم، أن خطوة واحدة، هى بداية طريق طويل نحو الخيانة، نحو الجحيم.

ولقد تركوا «جازية» أسبوعاً كادت فيه تفقد عقلها.. تركوها وسط النعيم بلا مال.. اختفى صادق تماماً، وأصبحت جازية عاجزة عجزاً كاملاً عن التفكير.. كانت تأكل فى الفندق، كانت تخرج أحياناً بالسيارة لتهيم بلا قصد، ثم تركت السيارة بعد أن كاد البنزين يفرغ، وراحت تركب قدميها من جديد، تجوب الشوارع بحثاً عن مخرج، حتى اليوم الأول فاعتراها القلق، أين صادق؟.. وفى اليوم التالى سألت عاملة التليفون أكثر من عشر مرات أن كان أحد قد سأل عنها.. ولا جواب، وبدأ موظف الاستعلامات يرمقها بنظرة غريبة، ثم كف الحارس عن الهرولة نحوها وفتح الباب، ثم أصبح الخدم يتلكأون فى الاجابة على الجرس.. أن النعيم فى حاجة إلى المال، وكل خطوة فيه تكلف بقشيشاً وثمنا، وهى أصبحت لا تملك ثمن شىء، كانت كعارية تسير وسط الغربة بلا سند.. تحولت الأضواء الملونة إلى السنة لهب تكوى عقلها، من أين تدفع ثمن الفندق، من أين تضع بنزينا فى السيارة، بل.. كيف تترك كل شىء وتعود إلى القاهرة.. لم تكن «جازية» تعلم أن كل خطوة تخطوها كانت مراقبة ومحسوبة، لم تكن تعلم

أن هناك عيونا تتبع كل خطوة من خطواتها، وأن هناك آذانا تسمع كل كلمة وكل نبرة فى صوتها.. حتى إذا بلغ بها اليأس أقصاه، دق جرس التليفون ذات يوم فى غرفتها، وعبر الأسلاك جاءها صوت صادق..

■ ■ ■

أنت لا تعرفين.. كما لا يعرف الكثيرون، أن لعبة المخابرات فى العالم كله بعيدة كل البعد عن العنف.. أن ما نشاهده فى أفلام جيمس بوند ليس حقيقة، بل خيال.. ان المخابرات فى العالم أجمع.. لعبة اسمها «الذكاء».

■ ■ ■

ولقد يسمعون فى ذات يوم، هؤلاء الرجال القابعون خلف أسوار الصمت فى مبناهم هذا فى حدائق القبة.. أن أحكى لك قصة ذلك الضابط المصرى الذى كان يلعب الشطرنج فى القاهرة مع ضابط مخابرات اسرائيلى فى تل أبيب، ودون أن يرى أحدهما الآخر، أو يحدثه، أو يلتقى به، أو يعرف أى منهما القطع التى يحركها الآخر.. قد يسمحون لى أن أقص هذه القصة التى انتصر فيها ضابط المخابرات المصرى، فانتحر خصمه، أمام رقعة الشطرنج.

وقد كانت جازية فى تلك الليلة التى حدثها فيها صادق بالتليفون، قد تحولت ـ علميا وعمليا ـ إلى قطعة من العجين

الطيع ، كانت قد تحولت إلى قطعة لدنة من الصلصال يستطيع المثال الماهر أن يخلق منها مايشاء .

حدثها صادق معتذرا .. وصاحت هى فيه :

« أستاذ صادق .. أنا .. أنا »

وتوقفت .. أنا ماذا ؟ .. ما الذى يمكن أن تقوله وهو يعرف كل شىء ... وعبر الأسلاك جاءها الصوت هادئاً واثقاً مطمئناً .

« آسف قوى ياجازية ، غصب عنى ، أنا بكره الصبح حاكون عندك » .

بكره الصبح .. وماذا عن الليلة ، ماذا عن الآن ؟ ولأنها كانت بلا حول ولا طول ، فلقد شكرته متوسلة ، ووضعت السماعة ، ثم انتبهت وكادت تصرخ فزعاً .. لقد أصبحت وحيدة من جديد .. وقفت وسط الغرفة مبعثرة الخاطر والفكر ، نظرت إلى التليفون الأنيق وقد عاد يغرق فى الصمت من جديد ، اختطفت حقيبة يدها وهرولت إلى الطريق ، تحولت السيارة إلى قبر لامع ، وشوارع روما إلى جحيم لا يطاق .. كيف يمكن أن تمضى الساعات ، ولقد مضت ، مضت بطيئة ثقيلة لكنها مضت ، مضت ليطلع النهار وليأتى الصباح ، ولكن فى أى ساعة من الصباح سوف يأتى صادق ، وإذا كان

الصباح ينتهى رسمياً فى الثانية عشرة فلقد أصبحت الساعة الواحدة ولم يأت صادق ، ومضى الظهر والعصر وغربت الشمس والكفأت جازية فوق الفراش وانخرطت فى البكاء .

■ ■ ■

جاءها الطرق الخفيف على الباب كحلم ، كانت هى بين اليقظة والنوم ، كابوس هذا الذى كان يراودها أم حلم ، صرخات تلك أم ضحكات ، وعاد الطرق الخافت من جديد .. فاستبانت الأمر .. نهضت مضعضعة الحواس وانتبهت أكثر .. وعاد الطرق فهمست :

ــ مين ؟ ..

ــ أنا صادق ..

قفزت كالمجنونة لتفتح الباب .. وكان صادق يقف أمامها باسما .

■ ■ ■

هل تشعرين بما كانت تشعر به ؟ .. هل تدركين كيف كانت جازية فى ذلك الوقت ؟

أشك كثيراً فمها بلغ بنا الاحساس ، فلا يمكن لأى منا أن يشعر بالنار كالمكتوى بها فعلا .. وإذا كانت جازية قد أصبحت الآن « جاهزة » تماما .. فإن المثال الجيد ، يعرف

كيف يغسل طينته، وكيف يجعلها أكثر طواعية .. وهكذا وجدت جازية نفسها تجلس فى مطعم فاخر من مطاعم روما، الذين يدفعون فى وجبة الطعام مايقبضه أى منا فى شهر كامل، حيث الطعام له رائحة المسك، حيث الناس يأكلون بلا صوت، ويمضغون دون أن يحركوا شفاههم .. ولم تستطع جازية أن تأكل، كل ما استطاعته أن تتشبث بصادق، تمسك رموشها بيديه حتى لا يغيب مرة أخرى .. غير أن الدقائق كانت تمضى، ليشكل المثال تمثاله على مهل وفى هدوء .. كانت الطمأنينة تعود إلى نفسها.

كان صادق يتحدث عن المال، كيف جاء إلى ايطاليا، كيف وجد عملا فى شركتين بدلاً من شركة واحدة .. كيف .. كيف ؟

غير أنه لم يقل لها الحقيقة بطبيعة الحال .. كانت جازية تعلم أنه زوج لاحدى المعارف فى الدقى .. ولم تكن تعلم أن لصادق زوجة أخرى فى الاسكندرية، لم تكن تعرف أن تجارته أفلست هناك فنزح إلى ايطاليا ليعمل فى تهريب البضائع إلى مصر، لم تكن جازية تعلم كيف مر «صادق» بنفس التجربة التى مرت بها، لم تكن تعرف أنه كان ضابطا فى المخابرات الاسرائيلية !!

بعد هذا كان لابد أن تسير الأمر على ما يرام .. وإذا كان «صادق» قد اختار ركنا فى المطعم قريبا من جهاز التكييف، فلقد أدهشه أن نهض الرجل الجالس على المائدة المجاورة ليغلق الجهاز، ونهض «صادق» ففتح الجهاز، ولم تتعلق جازية فلم تكن تعرف الايطالية، فلقد دار الحديث بين الرجل وبين «صادق» ترجمه لها صادق، وكان مناقشة حول جهاز التكييف، مناقشة انتهت بتعارف، ذلك أن الناس هنا على طبيعتهم، مش معقدين زينا .. هكذا قال لها صادق ورجل الاعمال ينتقل إلى مائدتها .. ليدور الحديث بين الجميع بالانجليزية ..

وكانت هذه هى البداية ..

فلقد قدم رجل الأعمال لها نفسه، وما أن عرف أن «جازية» صحفية مصرية، حتى تهلل وجهه، أنه كرجل أعمال يريد أن يفتح لشركته فرعاً فى مصر.. وامتد الحديث حول مصر، حول الحرب، حول الحالة الاقتصادية، حول .. حول .. حول .. ولا شىء فى الدنيا يعادل الحديث عن مصر فى لذته، وأنت بعيدة عن مصر.. نهض صادق إلى التليفون أثناء الحديث مرات وعاد، وامتد الحديث بين رجل الأعمال وبين جازية، وإذا به يعرض عليها أن تكون مندوبة الشركة فى مصر.

هكذا وجدت جازية نفسها أمام طاقة فتحت لها فى السماء.

وإذا كان الحديث حول المال والأعمال يتم فى جلسة فلقد دعاها رجل الأعمال الايطالى إلى الغداء فى اليوم التالى.

وفى اليوم التالى كانت «جازية» تدلف إلى المطعم الفاخر وحدها، كان «صادق» قد أمدها ببعض المال.. وكان قد وعد بالحضور، لكنها لم تجده هناك.. بل وجدت رجل الأعمال الرقيق الحازم.. ان رأس المال لايتحرك إلا إذا اطمأن إلى الأرض التى سوف يخطو عليها.. ان مشروعه فى مصر قد يتكلف عشرة ملايين دولار، ولسوف تكون لجازية بطبيعة الحال ـ نسبة مئوية ـ كما سيكون لها مرتب ثابت.. كان الأمر يجرى بين يديها بالأرقام والأوراق.. وليست المشاريع كلاما يطلق فى الهواء، بل خرائط ومواصفات كانت تفرد أمام عينيها واقعا تلمسه بيدها.. استغرقها الحديث وسال لعابها.. أن تكون فى حاجة بعد الآن للجرى وراء خبر أو إعلان.. شىء واحد فقط كان يقلقها.. أن صادق لم يأت.. واذا كان رجل الأعمال لا يهتم بحضوره، فسبب ذلك أن العرض قدم إليها لا إليه، وعندما استدعاها الجرسون إلى التليفون، كان صادق على الطرف الآخر يعتذر، أن لديه أعمالاً لابد أن ينتهى منها، ولسوف يلتقى بها فى المساء.

وفى المساء كانت تقص على «صادق» ما حدث، وكان صادق يبدو مندهشاً، سعيداً، وكان يشجعها على القبول.. هكذا بدأ حياته فى ايطاليا. وكانت المفاجأة أن صادق أخبرها بأن السيارة سوف تشحن فى الغد إلى مصر، وأن حساب الفندق قد دفع.. ولقد حاولت جازية أن تسأله عن الحساب، غير أنه رفض بكرم حاتمى، وأجل الأمر برمته إلى حين العودة إلى القاهرة..

انفرجت الأزمة، وعادت «جازية» تتنسم عبير الحياة فى روما.. وتعددت لقاءاتها مع رجل الأعمال.. ووضع المشروع أمامها بكل دقائقه.. غير أن شيئاً واحداً كان ينقص الأمر كله حتى يبدأ التنفيذ.. هو: ما هى الحالة الاقتصادية فى مصر؟.. وهل تسمح هذه الحالة ببداية مشروع كهذا؟.. وماذا عن الحرب؟.. وهل يستعد المصريون لها أم أن الأمور قد استقرت؟..

كانت البداية طبيعية.. ولكن نهايته.. جعلت «الفار يلعب فى عب جازية»..

قال لى صديقى ضابط المخابرات المصرى:

«نحن لسنا آلهة نعلم الغيب، أن عملنا هو حماية مصر، عملنا هو اكتشاف الجواسيس وبقدر مانبذل من جهد، بقدر ما ننجح!..»

هكذا كان يبسط الأمر وهو يحكى لى حكاية « جازية » ..
جازية المصرية ..

وإذا كان العلم هو الأساس الصحيح لكل الأشياء فى الدنيا ، فإن العلم هو الذى يرسم الطريق أمام هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة .

ولقد شعرت « جازية » بشىء غير طبيعى .. كان المطلوب منها فى المرحلة الأولى للمشروع ، أن يظل الأمر سراً لا يعرفه أحد .. ذلك أن رأس المال يجب أن يتحرك وسط ضمانات أكيدة .. كما كان المطلوب منها أن تستقصى عن بعض الأخبار الاقتصادية .. وهذا سهل عليها ، فإنها ان كانت صحفية ، فان مهنتها هى البحث عن الأخبار.. أخبار الاقتصاد المصرى .. وأخبار الجيش المصرى .. حتى يتسنى للرجل أن يعرف فى أى أرض سوف يضع ماله ..

وطوال الفترة الباقية فى روما ، اختفى « صادق » ! وفى علم المخابرات ، يسعى من يعمل ذلك العمل الذى يقوم به « صادق » « الفراز » .. ويصبح على الفراز إذا ما أصبحت الفريسة جاهزة ، أن يختفى تماما من الحلبة ، وأن يبتعد .. ولقد ابتعد صادق ، ولكنه لم يخلف وراءه ذلك القلق المدمر الذى ترك فيه « جازية » فى المرة الأولى ، ذلك أنها الآن ، كانت

فى حماية صاحب العمل ، الذى اتفق معها على الأجر ، ووعدها على لقاء فى موعد سوف يحدده لها فى القاهرة .

■ ■ ■

عندما هبطت جازية فى مطار القاهرة الدولى ، كانت تحمل فى حقيبتها بوليصة شحن السيارة ، وبضعة عشرات من الدولارات .. وكانت هى تخطو خطوتها الأولى خارج المطار أمام طريقين لا ثالث لهما .. وكان عليها أن تختار.

■ ■ ■

هنا يا عزيزتى .. نصل إلى لب الموضوع ..

هنا نصل إلى معنى « البطولة » كما أفهمها أنا .. لم يكن المطلوب من « جازية » فى تلك المرحلة شيئاً غير عادى .. كان المعروض عليها عملاً مغرياً « بمرتب مغر» وأحلاماً لا يبددها أى مجنون .. أو « بطل » .

وإذا كان المشروع سوف يتكلف عشرة ملايين دولار، فإن أرباحه سوف تصل إلى عشرات الملايين دون شك ، وإذا كانت الأرباح ستصل إلى عشرات الملايين ، فأى نسبة هذه التى كانت ستحصل عليها « جازية » ؟ ..

ولكن ...

كانت ثمة رائحة تفوح من الأمر كله ..

لم يكن ما يدور فى ذهن جازية ، شيئاً محدداً ، لم يكن سوى مجرد هواجس تطوف بالخاطر ، احساس غير طبيعى بأن ثمة شيئاً غير عادى فى الأمر كله .. فهل تبدد الحلم أم تعود تسعى فى شوارع القاهرة بحثا عن عمل ؟ ..

غير أن الأمر لم يأخذ من « جازية » الكثير ...

نظرت ذات صباح إلى سيارتها الجديدة ، وكانت قد أصبحت الآن ملكاً خالصا لها ، ثم فتحت الباب ، وجلست خلف عجلة القيادة ، وأدارت الموتور ، وانطلقت .

كانت تعرف ببساطة وجهتها ..

كانت تعرف أين يقع ذلك المبنى الغارق فى الصمت .. وهناك طلبت أن تقابل مسئولاً ..

■ ■ ■

عاد صديقى ضابط المخابرات المصرى يقول :

« نحن لسنا آلهة نعلم الغيب .. أن عملنا هو حماية مصر ، عملنا هو اكتشاف الجواسيس .. وبقدر ما نبذل من جهد ، بقدر ما ننجح ! »

وكانوا قد بذلوا جهداً خلف « صادق » منذ ما يقرب من عام .. ووقع الخبر على جازية وقوع الصاعقة .. أن « صادق »

ليس خائناً فحسب .. أنه ضابط فى المخابرات الاسرائيلية .. لقد اختار أحد الطريقين يوم أغراه المال عن الوطن ..

وخرجت « جازية » من المبنى لتشارك فى القبض على صادق ، الذى ضبط متلبساً كالعادة وحوكم وأعدم .. وعادت « جازية » تطوف شوارع القاهرة بحثاً عن عمل ..

ولقد عثرت جازية على عمل ، أصبحت صحفية بمرتب .. لكنها باعت السيارة .

القبـــطان

لم يشعر أحد من المتفرجين الذين ازدحموا فى شرفة ملاعب «الاسكواش راكيت» بهذا الشاب الاصلع الذى راح ينزلق بين الأجساد كى يصل إلى المقدمة ويتخذ لنفسه مكاناً فوق الملعب مباشرة.. لم تكن أهمية المباراة التى كانت دائرة أن أحد اللاعبين هو «سعيد» مدرب الاسكواش فى النادى فقط، بل لأن اللاعب الآخر كان «عمر حمدى»، ذلك الشاب الذى تمتزج الرجولة بشبابه امتزاجا يضفى عليه نوعا من السحر كان حديث الفتيات فى النادى، والذى كان ـ إذا ما ظهر فجأة بعد اختفاءة من تلك الاختفاءات التى اشتهر بها ـ يثير فى النادى جوا من المرح والتحدى كان يقلب مباريات الاسكواش رأساً على عقب.



وعندما وصل ذلك الشاب الغامض الذى لم يلفت نظر أحد، كان واضحاً أن «سعيد» متفوق على خصمه، ولكن... كان الأكثر وضوحاً، أن عمر كان يستميت دفعاً للهزيمة.. كان اللاعبان الآن يقفان عند نقطة تعادلا فيها، ولقد دقت قلوب الكثيرين انفعالا عندما أحرز «سعيد» هذه النقطة فى لحظة غامضة، لحظة لمحت فيها عينا عمر شيئاً فى الشرفة، كانت لحظة سريعة خاطفة أحرز فيها سعيد النقطة، وانتهت المباراة!!

لم يكن هذا الشىء الذى حول نظرات عمر عن الكرة السوداء الصغيرة، سوى وردة بيضاء من نوع القرنفل الذى ينتشر فى مصر فى مثل تلك الأيام من الصيف.. وبعد خمس دقائق، وربما أقل بجزء من الدقيقة، كان عمر يدلف إلى الباستير ـ غرفة خلع الملابس فى النادى ـ وهو يجفف عرقه ويتبادل النكات والضحكات مع الذين راحوا يلومونه.. وعندما توقف عمر أمام دولاب ملابسه، كان يحمل فى يده مضرب الاسكواش، وفوطة حمراء اللون، وكانت يده ـ وهى ترفع لتفتح الدولاب ـ قد التقطت ورقة صغيرة مطوية فى حجم ورقة البريد.. ولم يلحظ أحد بطبيعة الحال، من الذى أعطاه تلك الورقة، ولم يلحظ أحد أنها ظلت بين أصابعه حتى دلف إلى الحمام، ووقف تحت الدش، ولم يلحظ أحد أنه فردها

وقرأ ما فيها من رموز. ثم.. ثم ذابت الرموز تحت مياه الدش، كما ذابت الورقة وتفتت مع المياه والصابون وكأنها لم تكن!!

■ ■ ■

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء عندما كانت سيارة «عمر حمدى» الصغيرة تخترق شوارع ذلك الحى الارستقراطى فى القاهرة... وكانت المسافة الباقية محسوبة فى رأسه بدقة.. وقبل أن تدق الساعة العاشرة بدقيقتين فتحت بوابة أحد القصور الغارقة فى الصمت والضوء الخافت، ونفذت سيارة «عمر» إلى حديقة القصر وسارت فى أحد الممرات حتى وصلت إلى خميلة كانت تخفى ما بداخلها، هبط «عمر» من السيارة، وسار تحت تكعيبة عنب مورقة، لكنه قبل أن يصل إلى نهايتها، التفى فجأة إلى باب كان يختفى خلف أوراق الشجر، دلف من الباب فاحتواه بهو هائل.. بنظرة سريعة كان قد شمل البهو كله، وعندما خطا خطوته الأولى، كان واضحاً أنه يعرف طريقه جيداً!

سار خطوات ثم نفذ إلى اليسار ليصعد درجات سلم دون أن يصدر عن قدميه ـ رغم سرعته فى الصعود ـ أى صوت.. وعند قمة السلم كاد يصطدم به رجل كان يهرول وكأنه يطارد شيطاناً، تفادى عمر الاصطدام بالرجل المهرول ثم دلف إلى باب جانبى فطالعته فى الداخل «سوزى».

توقف لثوان ، واحتوته عيناها الزرقاوان ، وابتسامتها الواسعة الواثقة ، كان يعرف أنه سيراها ، وكان كلما رآها ، أحس بالحنين إلى تلك الأيام الدافئة على شاطىء « بور توفينو » بالريفييرا الايطالية ، وعندما مال عليها هامسا بالتحية ، جاء صوت الدكتور وكأنه يصدر عن الهواء :

ــ أدخل يا عمر !

نظر فى ساعته وتمتم فى ضيق :

ــ لسه فاضل عشرين ثانية ! ..

وابتسمت سوزى وهي تومىء له نحو الباب ، وجاءها صوته قبل أن يغلق الباب خلفه مرة أخرى وهو يقول « مساء الخير يا افندم ! »

■ ■ ■

فى تلك اللحظة بالذات ، كان القبطان « انطونيو كاناليس » ــ قبطان أعالى البحار ــ يجلس فى أحد ملاهى مارسليا وإلى جواره كانت « مارى لويز » .. كان واضحاً أن القبطان يشرب فى تلك الليلة بصورة تزعج مارى إلى أقصى حد .. ثمة شىء غامض كان يحيط برجلها العجوز منذ ما يقرب من شهرين دون أن تدرى ــ بالتحديد ــ ما هو .. كل ما تعرفه أن « ايزاك » جاءها ذات يوم وطلب منها أن تهتم بالقبطان ، ولقد اطاعت الأمر كما تعودت أن تطيع منذ أن حدث

ما حدث .. لم يكن أمامها مفر ، أن « الانتربول » ــ البوليس الجنائى الدولى ــ يسعي وراءها ، ظلت طريدة لسنوات حتى استقرت أخيراً فى مارسليا ، ولقد طوت الماضى على جرح لم تجف دماؤه .. قائلة هى : « نعم !! ... » ومهما كانت دوافع القتل فلقد كان السجن هو مصيرها لو باح أحد بسرها الدفين .. ولقد كان « ايزاك » يعرف هذا السر ، وكان يحميها ، ولم يكن يطلب منها فى مقابل هذه الحماية شيئاً سوى خدمات بسيطة .. وفى البداية ، كان انطونيو واحداً من الرجال ، وفى النادى الليلى لم يكن هناك سوى رجال ، رجال ، رجال ... هذه هى مهنتها اليوم .. لسنوات طويلة عاشت هذه المهنة وتعودت عليها فلا مجال للتفكير فيها الآن وادعاء الشرف أو الرغبة فى حياة مستقرة ، لا ... ولكن كان ثمة شىء يقربها من قبطانها هذا العجوز القوى البنية ، الحاد التقاطيع ..

منذ أن التقت به وشعره الرمادى يمس فى قلبها وتراً غامضاً .

« انطونيو .. ألا تكف عن الشراب ؟! »

نظر إليها نظرة جعلتها تتساءل :

ــ ما الذى أراده أيزاك بأنطونيو يوم أن أوصاها به ؟!

ــ سؤال طالما ألح عليها فى المرات التى رأت فيها انطونيو القوى العابث وكأنه يتبعثر.. لكنها لم تجرؤ على توجيه السؤال إلى أحد، ما لها هى وأعمال البحر وعصابات التهريب فيه، ثم... هل من الممكن أن تظن فى انطونيو بكل خبرته رعونة أو تورطا فيما لا يجدى ؟!

« انطونيو.. دعنا نغادر هذا المكان! »

وافرغ انطونيو كأسه دفعة واحدة، وعندما التقت نظراته بنظراتها، أحست أن ثمة شيئاً يخبو فى عينيه، تلك النظرة العارمة المشتعلة أين ذهبت ؟.. وعندما كان يغادران الناس الليلى، كان ثمة سؤال يلح عليها ترى.. هل وقعت فى الحب أخيراً ؟!

■ ■ ■ ■

ولقد تعود « عمر حمدى » ــ إذا ما اسندوا إليه احدى العمليات أن يلجأ إلى الشطرنج.. فى أحيان كثيرة كان يسخر من نفسه، لكنه كان دائماً ما يضع الرقعة أمامه، ويجلس إليها طويلا، ربما بالساعات، لا ينطق حرفاً، ولا يكف عن التدخين!

ولقد كانت عملية اليوم غريبة..

لقد ثبت أن اسرائيل كانت تحصل طوال الشهور الماضية على معلومات أكيدة عن ميناء الاسكندرية، ولم يكن غريبا أن

تجرى اسرائيل وراء الميناء بالتحديد، لقد حصلت مصر حديثا على عدد من الغواصات، وكان المصريون قد عرفوا كيف يقودون هذا السلام رغم أنهم كانوا يمارسون هذا لأول مرة... كما كانوا قد حصلوا على عدد من القطع البحرية الحديثة التسليح.. وإذا كان الاسرائيليون يعرفون ثمة السلاح البحرى المصرى على حقيقتها، فهم لا ينسون ما فعله هذا السلاح بهم فى حرب ١٩٤٨ عندما داهمتهم السفينة نصر ــ وهى كأسلحة الغام صغيرة كانت واحدة من ثلاث قطع هى كل السلاح البحرى المصرى وقتها ــ فى رأس السنة، كما أنهم لم ينسوا ما فعله قائد السفينة دمياط أثناء العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦ ــ وكان كل ما حصل عليه « عمر حمدى » من معلومات، لا يزيد على احتمالات، فالميناء مفتوحة للعديد من السفن الاجنبية التجارية التى تدخل وتخرج، كما أن وجود جاسوس فى الميناء أو فى الاسكندرية عموماً، كان أمراً وارداً..

غير أنه فى تلك الليلة، لم ينم حتى الصباح، كانت رقعة الشطرنج، عندما تسلل ضوء النهار من النافذة المفتوحة، قد تحركت بعض قطعها المضادة.. وأصبح للرقعة الآن معنى!..

كان أول ما يشغل بال « عمر حمدى » هو ذلك السؤال الذى ظل يلح عليه منذ أن غادر الدكتور، ومنذ أن قطع غرفة

« سوزى » فى خطوتين دون أن يلقى عليها بالتحية ودون أن يلحظ تلك الابتسامة التى ارتسمت على شفتى الفتاة الشقراء: هل غيرت اسرائيل مركز تجسسها فى أوربا ؟ !

ولقد كان عليه قبل أن يسافر إلى الاسكندرية ــ أن يضع عدداً من الاحتمالات، ولقد كان عليه لكى يضع هذه الاحتمالات، أن يطلع على كل ما ورد من معلومات حول هذا الموضوع ..

وهكذا .. ما أن غربت شمس ذلك اليوم، حتى كان « عمر حمدى » قد حدد طريقه جيداً، وعرف أى الطرق يسلك ..

ولذلك: فلقد سلك فى صباح اليوم التالى الطريق الصحراوى إلى الاسكندرية !

■ ■ ■

بعد عشرة أيام بالضبط، كان القبطان « انطونيو كاناليس » يقف فى « الممشى » ناظرا إلى الشاطىء المصرى الذى كان يقترب، كان الجو ساطعا بشمس الصيف الحارقة، وكان البحر يبدو أمام عينيه كبحيرة وادعة .. وكان ما يشغل ذهنه شخصان «مارسيل .. ومارى لويز»

ها هو ــ بعد كل هذا العمر ــ يقع فى الحب، المشكلة الحقيقية أنه يعلم عن يقين أن السنوات الستين التى يوشك أن يكتمل بها عمره، دخلا فى هذه النار التى التهبت بها عواطفه .. قبل أن يراها كان يحيا مثل النورس، رحلاته فوق الموج تقوده إلى الشاطىء بين الحين والحين يشرب ويأكل ويحتوى بين ذراعيه امرأة يعرف كيف يرضيها ويعرف كيف يجعلها قادرة على ارضائه .. لم يكن غرورا، بل كانت تجربة عمر حافل .. عمر بدأ يوم غادر لشبونة لأول مرة صبياً فى الثامنة عشرة من العمر، تطلع إلى البحر كما يتطلع الطائر إلى السماء، وهناك، فى بداية تلك الحياة اكتشف خيانة « كارمن »، يوم عاد من احدى رحلاته فوجدها قد تزوجت شاباً آخر .. ولم يغضبه الأمر، لكن أدمى فؤاده، منذ ذلك الزمان البعيد وهو يحيا كبحار، لم يرسم خطة أو يضع قرارا، لكنه هكذا كان، ليس على الأرض شاطىء لم يرس عليه، وليس فوق الخريطة ميناء ليس له فيها امرأة .. حتى التقى بها، بمارى لويز، فى تلك الأيام التى تفتت فيها مقاومة الرجل ويبدأ فى الاحساس بنزول الثلج، ليس مهماً لديه أنه أحبها فهو قادر تماما على التحكم فى نفسه، لكن المزعج فى الأمر حقا، هو ذلك الاحساس الطاغى الذى يدفعه إلى الاحساس بأنها تحبه !!

هل هذا ممكن ؟!

حتى ولو لم يكن ممكنا فلقد حدث.. وهو يستطيع أن يقسم بالعذراء أنها تحبه، والدليل الدامغ على هذا أنها لم تبح له بحبها... ولقد أصابه هذا بنوع من الهستريا، كان يشعر برغبة جارفة فى شراء الكرة الأرضية ووضعها بين يديها، ولقد بدا ماله يتبخر.. وهذا مالم يحدث له، وعندما كانت سفينته تصل إلى مارسيليا، كانت هى أسبق من السفينة إلى رصيف الميناء.. ولقد كان كل شىء يبدو ممتعاً حتى دخل حياته جوزيف بائع العطور.

انطلقت صفارة السفينة فصحا انطونيو كاناليس من أفكاره، على مرمى البصر كان لنش الارشاد يتأرجح فوق سطح المياه يحمل إليه صديقه الحميم، «مرسى الشتيوى».. وأشعل انطونيو «البايب» وارتسمت على شفتيه ابتسامة، أنه يحب مرسى وها هو مرسى يلوح له من بعيد!

■ ■ ■

لم يكن الأمر صعباً بالنسبة لعمر حمدى على كل الأحوال، ورغم أنه كان قد مضى عليه فى الاسكندرية ما يقرب من أسبوع أو يزيد قليلاً، الا أن الخيوط كانت تتجمع فى يديه، ورقعة الشطرنج تتخذ لها ملامح الصراع المحدد.

كان عليه أن يحدد المجموعة التى اختارها للعمل معه، وكانت مجموعته تتكون من عدد من الشبان الذين يعرفون كيف

يفكرون.. كان أكثر ما يسليه فى الامسيات الحارة، هو ذلك البطل الجديد للمخابرات، والذى بدأ يغزو أسواق أوربا كان «جيمس بوند» أو «العميل ٧..» يلهب أنفاسه رغم ما فيه من «فشر» كان يحبه، ولو كانت المهنة بهذه اللذة لتحول الناس كلهم إليهم.. غير أنه كان يفرغ من الكتاب فى ليلة، وكان هذا يضايقه... وإذا كان تفريغ المعلومات التى وصلت إلى تل أبيب، ومقارنتها بيوميات الميناء قد حصر اتجاه تفكيره، فإن الفضل لا يرجع إليه بقدر ما يرجع إلى غباء الاسرائيليين.

أعظم ما فى لاعب الشطرنج أنه يستطيع اخفاء هدفه من حركة قطعة، أن هذا الاخفاء هو سلاحه للنصر مهما راوغ الخصم، فكيف يقع هذا الضابط الاسرائيلى فى خطأ صغير كالذى اكتشفه عمر؟!

بداية... كانت المعلومات التى وصلت إلى اسرائيل عن تحركات بعض قطع الاسطول صحيحة، كما كانت المعلومات التى حصلت عليها لحركة الميناء أيضاً صحيحة.. ولقد حدثت هذه التحركات فى فترات زمنية محددة، فترات بعضها تفصل بينها أسابيع وفى بعض الأحيان تصل إلى شهرين، معنى هذا أنه ليس جاسوسا مقيما بالاسكندرية ذلك الذى يمد اسرائيل بالمعلومات، لكنه جاسوس زائر، يأتى فوق احدى السفن، ويقلع معها.. وفى هذه الفترات، كانت هناك سفن بعينها

توجد فى الميناء، سفن أجنبية وأخرى مصرية.. بعضها يكون حاضراً والبعض غائبا، غير أن سفينة واحدة كانت تشترك فى كل هذه الفترات، تلك هى السفينة التى يقودها القبطان «انطونيو كاناليس».

■ ■ ■

راح مرسى الشتيوى ـ المرشد بميناء الاسكندرية وهذا هو اسمه الحقيقى؟ ـ ينظر إلى صديقه بامعان، ثمة شيء يتغير فى طباع «انطونيو كاناليس»، منذ سنوات طويلة والعلاقة بينهما تتوطد، ليس حبه لمارى لويز هو الذى يؤرقه رغم أن انطونيو يؤكد له ذلك، طالما حدثه انطونيو عن مغامراته مع النساء، وهو على يقين من أنه يحب مارى ولكن ليس إلى هذا الحد...

ولقد كان يجلس بجوار صديقه فى السيارة وهما متجهان إلى الميناء، كان الليل قد انتصف منذ ساعتين، وكان قد شربا ما يكفى لتلك الليلة وما يكفى ليطلق لسان انطونيو من عقاله، هكذا عرفه طوال السنوات التى مضت، ولكن ها هو القبطان يجلس صامتاً ساهماً لا ينطق.

عند سلم السفينة توقفت السيارة وهبط القبطان مودعاً صديقه وصعد إلى الممشى، صاح ينادى «روبرتو» طالبا مقعدا، تمدد فوق المقعد وترك نفسه ليستجم فى ضوء القمر!

بدأ الأمر عندما همس جوزيف بائع العطور فى أذنه بأن لديه نوعا من العطور يندر أن يجده الانسان، لم يكن يملك مالا غير أن جوزيف استطاع أن يقنعه بالدفع فى مرات قادمة.. لا يعرف حتى رأى جوزيف بائع العطور لأول مرة، غير أن مثله فى كل موانيء الدنيا ينتشرون فوق ظهور السفن كالفيران فى أعماقها، مرة بعد مرة ولقد تراكمت عليه الديون ثم أن سعادة «مارى لويز» كانت تفوق لديه كنوز الأرض، ذات مرة انتابته العصبية فراح يهدد طارداً جوزيف من فوق ظهر السفينة آمراً البحارة بألا يدعوه يصعد إليها مرة أخرى... ثم أنه فى تلك الأيام كان يشعر بحب مارى لويز له يزداد.. سألته ذات مرة وهى تحتضن رأسه داخل صدرها العارى:

ـ من أين تأتى بالمال أيها العجوز؟!

وغمغم انطونيو وهو يقبل ما بين نهديها:

ـ أنسيت أيتها الفتاة أنى قبطان أعالى البحار!..

ورن صوتها المنبعث من صدرها فى أذنه:

ـ اياك أن ترتكب مخالفات من أجلى!

رفع عينيه إليها فهمست له:

ـ انى أحبك.. وهذا هو الجنون بعينه غير أنى أحبك حقاً!

وكانت هذه هى المعضلة!

■ ■ ■

توقفت قطع الشطرنج عن الحركة لايام ..

كانت السفينة تحمل أربعين بحاراً، تغير منهم عشرون أثناء الرحلات الأخيرة.. وهكذا بقى أمامه عشرون آخرون .. وإذا كانت تصرفات هؤلاء البحارة قد وضعت بكل دقائقها تحت عينه طوال بقائهم فى الاسكندرية، فإنه لم يجد مفرا من السفر..

كان هذا هو الجنون بعينه غير أنه تعود الجنون.

من العشرين كانت الشكوك قد انحصرت فى خمسة، وإذا كان دليل عمر حمدى فى كل ذلك هو احساسه وتجربته، فان هذه طبيعة رجل المخابرات، وكثيرا ما دخل فى مناقشات مع زملائه .. وإذا كانت المخابرات هى «علم الذكاء» وإذا كان هذا العلم هو الوحيد الذى لايدرس فى الكتب بل يعتمد على التجربة، فطالما أرقه هذا الاحساس الغامر الذى كان ينتابه كلما تولى أمر احدى العمليات.. كان هؤلاء الخمسة هم: كبير المهندسين ذو الجسد العريض واليدين المتسختين دائماً، والذى لايشرب إلا أردأ أنواع الخمور، وكان هناك «تونى» ضابط اللاسلكى الذى يتقن أثنتى عشرة لغة من بينها العربية بثلاث من لهجاتها اتقانا تاما.. وثلاثة من البحارة بدت تصرفاتهم غريبة، لكنه اكتشف أنهم يتجرون فى بعض المهربات، وكان هذا من الممكن أن يكون ساترا ذكيا لعمليات تجسس نوع خطر!

ولقد طلب «عمر» من مخابرات السلاح البحرى المصرى أن تقوم قطع الاسطول ببعض التحركات التى اتفق معهم عليها، كما أوعز إلى قيادة الميناء أن تنقل احدى السفن التجارية المصرية من رصيف إلى آخر.. وقطع تذكرة على سفينة القبطان انطونيو الذى بدا له، مع ما جمع من معلومات عنه، أنه أبعد الجميع عن الشبهات.. وكان هذا فى حد ذاته، هو السبب الذى من أجله أراد «عمر» أن يسافر، وأن يضع نفسه داخل فم الاسد، وأن يعرض العملية كلها للضياع .. ان هؤلاء الذين يبدون بلا أخطاء، هم أكثر الناس دفعاً للظنون إلى رأسه!

وقبل أن يغادر الميناء كان قد رتب كل شيء.. وكان الرجال يعرفون تماماً، وبدقة متناهية، ماذا عليهم أن يفعلوا، وكان هو قد رتب كيف يتصل بهم إذا أراد.. صعد إلى السفينة يرتدى نظارة طبية، وكان شاربه قد نما، وكان يرتدى بذلة مضى عليها أكثر من عشرة أعوام، وكان يحمل اسم: الدكتور عبد الواحد اسماعيل.. أما وظيفته فكانت: «استاذ التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة القاهرة!

■ ■ ■

وكلما اقتربت السفينة من مارسيليا، كانت طباع القبطان تزداد حدة.. وفى الكبائن والعنابر كان البحارة والضباط

يتندرون بهذه الحدة، ولقد انقسم رأى الرجال فى قبطانهم، بعضهم يحبذ حبه لمارى لويز، وبعضهم يقول أن الحب لم يخلق لمن مثلهم.. وأحياناً كانوا يذكرون هذا الراكب الغريب الاطوار، الصامت دائماً المعتكف على تلك الكتب العتيقة التى كان يدفن نظارته بين سطورها آناء الليل وأطراف النهار، وكأنه يتغذى على الكلمات لا الطعام.

ولقد التقى انطونيو ذات صباح بالبروفسور عبد الواحد، فاقترب منه وحياه، لكن البروفسور المجنون رد التحية فى جفاء وهرول مبتعدا وكأنه يقطع الحديث..

ولم يكن لمثل هذا الحادث أن يشغل القبطان، فلقد كان ما يشغل ذهنه هو «مارسيل».. كان عليه أن يعطى الآن كلمته!

كان جوزيف قد استطاع الصعود إلى ظهر السفينة، لا يدرى كيف فكهذا كانت تصعد الفيران لتصبح فى نهاية الأمر حقيقة لا سبيل إلى الهرب منها.. وكان قد عرض عليه بدل العطور مالا، وإذا ما قال له انطونيو ذات يوم أنه لا يعرف من أين يسدد ما عليه من مال، جاءه الجواب من جوزيف بسيطاً!!

وبعد ثورته الأولى وغضبه وجد أنه لن يقع فى خطأ، كان كل ما طلب منه أن يرى بعينيه، وان يختزن فى رأسه، وأن

يدلى بما رأى واختزن فى صوت خافت ومرتب.. وأن يحصل فى مقابل هذا على مائتى دولار شهرياً..

ولقد قاوم فى البداية غير أنه فى أول زيارة له للاسكندرية، اكتشف أنه يراقب وأنه يحدد وأنه يحصر وأنه يختزن، وعندما عاد إلى مارسيليا استفزه جوزيف وابتز منه ما رأى وحصر واختزن، ثم نقده مالا ومضى.

من أفواه الرجال والحمالين وموظفى الميناء فى الاسكندرية كانت تتناثر المعلومات دون أن يسأل، أشياء عادية تحدث فى الميناء، وفى كل ميناء، غير أنها كانت تجد صدى لدى جوزيف، لم يكن هناك دليل واحد ضده فهو لم يكتب ورقة ولم يخط كلمة، غير أنه عندما دعى لمقابلة «مارسيل» عرف بما لا يقبل الشك أنه كان يتعامل مع المخابرات الاسرائيلية، عرف أنه كان يعرف ويخفى عن نفسه؟.. كان مارسيل واضحاً أشد الوضوح، أنهم يعقدون معه اتفاقا ويرتبون له مرتبا شهريا وينظمون له حياته.. ولقد طلب مهلة للتفكير فوافق مارسيل وابتسم، وكان انطونيو يعرف طبيعة هذه الابتسامة، كان يعلم أنه لن يتراجع، فلقد تعاون معهم بالفعل مهما انكر ذلك على نفسه..

فى مساء اليوم التالى لوصوله مارسيليا كان يقبض بضع مئات من الجنيهات الاسترلينية، وكان يشرب من الزجاجة

الثانية ، وفى عينى « مارى لويز » كانت نظرة مرتاعة ، أما الدكتور عبد الواحد اسماعيل ، فكان يجلس الآن فى غرفة مغلقة تطل على الميناء ، وأمامه كانت رقعة الشطرنج ، وكان هو غارق فى التفكير ، يدخن !

فى تلك الليلة كان الرجال الخمسة ، كبير المهندسين وتونى ضابط اللاسلكى والبحارة الثلاثة ، يخوضون تجربة من ذلك النوع الذى لايمارسه الانسان .. كانوا يتحركون تحت أعين شديدة الدقة تحدد تماما كل حركة ، يأتيها الواحد منهم . أما القبطان انطونيو كاتاليس فلقد كان له شأن آخر .. كان يتعارك مع مارى لويز فى بيتها ، كان ثمة قلق يعتريها ، كانت عصبية ، وكانت سكرانة ، وكانت تبكى فى تلك الليلة قالت لانطونيو أن « ايزاك » هو الذى دفعها إليه ، وانها خائفة عليه ، فلقد أحبته ، ويوم أقبلت عليه أقبلت كما كانت تقبل على كل رجل تعرفه ، لكنها أحبته .. ولذلك فهى تحذره .. ان هؤلاء الناس يعيشون حياة بلا قرار .

ولقد مضى على تلك الليلة أربعة أشهر وكانت العلاقة بين القبطان « أنطونيو كاتاليس » وبين عشيقته « مارى لويز » تزداد سوءاً ، وكان « البروفسور عبد الواحد اسماعيل » قد اختفى منذ غادر السفينة ، لكنه كان موجودا فى مارسيليا .. ظل هناك طوال فترة بقاء السفينة فى الميناء وقبل أن تبحر فى

رحلة العودة إلى الاسكندرية ، غير أنه عندما عاد إلى مصر كان قد اكتشف شيئاً بدا له شديد الاهمية ، فلقد نقلت اسرائيل مركز تجسسها فى أوروبا إلى مارسيليا .. وكانت الشبهات كلها الآن تحوم حول الرجل الوحيد الذى بدا ــ من بين جميع أفراد طاقم السفينة ــ بعيداً عنها ، كانت الاصابع تشير إلى القبطان .. غير أن الأمر قد حسم ذات مساء فى الاسكندرية ، حسمه المرشد المصرى « مرسى الشتيوى »

كان « عمر حمدى » على يقين الآن من أن أنطونيو هو الجاسوس ، وكالعادة ، استطاع رجل المخابرات المصرى أن يتحكم فى المعلومات التى يحملها الجاسوس أو يرسلها ، فما أن تدخل سفينة القبطان إلى الاسكندرية حتى تجتاح الميناء حركة تخفى حقيقة ما بها ، غير أن المشكلة التى واجهت « عمر » فى تلك الأيام ، كانت « الدليل » فكيف يقبض على « جاسوس » بلا دليل ؟ كيف يثبت أن انطونيو كان يرى ويختزن ثم يقول ؟ !

ولم يكن أمامه سوى الصبر ! .. والانتظار !

■ ■ ■

وعندما دق جرس التليفون ذات صباح فى غرفة « عمر حمدى » وكانت المكالمة دعوة إلى مقابلة هامة .. كان يتساءل

وهو فى الطريق إلى ذلك المكان المجهول هل وقع غريمه فى ذلك الخطأ الذى ظل ينتظره لشهور طويلة ؟..

وعندما وجد نفسه أمام المرشد المصرى « مرسى الشتيوى »، لم يكن الأمر مفاجأة وأن تظاهر بذلك !! صافحه وجلس قبالته وراح يستمع إليه، وكان على يقين من أن القصة قد شارفت على نهايتها.

■ ■ ■

فى مارسيليا كان الصراع قد احتدم بين انطونيو وبين مارى، كانت مارى خائفة ترتعد على رجلها الذى كان ينزلق إلى طريق غامض، وكان انطونيو قد وجد فى مصدر المال الجديد، اشباعا لرغبات بدت وكأنها كانت مكبوتة فى اعماقه طوال العمر.. ورغم ما كان بينهما من عراك وشجار، إلا أنهما لم يفترقا.. لم تكن مارى تستطيع المجاهرة بما فى نفسها، ولم يكن انطونيو يستطيع البوح بما يفعل، لكنه، مع كل يوم، كان ينزلق أكثر.

جاءه « مارسيل » ـ ضابط المخابرات الاسرائيلى، وليس هذا اسمه الحقيقى بكل تأكيد ـ ليطلب منه أن يجند شخصاً آخر.. ولم يكن أمام أنطونيو سوى صديقه « مرسى الشتيوى ».. وعندما عرض عليه اسم مرسى ووظيفته، وافق

مارسيل دون تردد، وأعطاه من المال ما كان يرى أنه كفيل بإغراء المرشد المصرى..

وهكذا فاتح انطونيو صديقه ذات يوم فى الاسكندرية، وبرغم ما اعتمل فى نفس مرسى الشتيوى من صراع، برغم ما عاناه من قلق ـ فلقد كان يحب انطونيو ـ إلا أنه تظاهر بالموافقة..

وكان هذا هو ما قاله مرسى فى ذلك الصباح لعمر حمدى..

وفى بساطة لم يكن مرسى ينتظرها بأى شكل من الأشكال.. طرح عمر المشكلة برمتها بين يديه.. كان أمام مرسى طريق من اثنين وكان عليه أن يختار.

أما أن يكتفى بالتبليغ ويكون قد أدى ما عليه من واجب..

وأما أن يستمر فى تنفيذ خطة وضعها عمر للقبض على انطونيو متلبسا.. وكان هذا لمصلحة مصر!..

ووافق مرسى على الاستمرار.. وكانت المعلومات التى يمده بها « عمر حمدى » من الدقة، بحيث أثارت مخابرات اسرائيل، وجعلت مارسيل يغدق المال على انطونيو حتى بلغ أربعة آلاف جنيه استرلينى، كما جعلته يطلب المزيد.. كانت المعلومات من الدقة بحيث تحركت قطع الغريم فوق رقعة الشطرنج فى بلاهة جعلت الطريق إلى « الملك » مفتوحا تماماً..

وذات يوم من أيام الشتاء .. كان عمر حمدى يقف أمام رقعة الشطرنج قبل أن يغادر مكتبه ، عندما حرك الوزير يضع خطوات وهمس : « كش .. مات ! » ..

ثم غادر المكتب !!

فى مساء ذلك اليوم ، كان كل شيء معدا ..

دخل القبطان مع مرسى الشتيوى إلى أحد المطاعم الشهيرة بالاسكندرية ، كانت المائدة التى اختارها تقع فى ركن منعزل .. طلبا كأسين وراحا يتهامسان .. كان مرسى يشعر بكل ما يدور حوله ، وعندما أخرج التقرير وقدمه إلى انطونيو ، كان هذا يخرج مظروفاً متخما بالمال ليقدمه له .. وفى تلك اللحظات بالذات ، والمظروفان يجتازان المسافة الفاصلة بين الصديقين ، جلس « عمر حمدى » بجوار انطونيو وهو يهمس :

ــ مساء الخير ! ..

ولم يقل أحد من الرجال الثلاثة شيئاً .. تهاوت يد انطونيو بالمظروف إلى المائدة ، وامتقع وجهه .. نظر حوله فرأى رجلين يجلسان على مائدة كانت خالية منذ ثوان ، وارتعد .. فلقد كانت نظراتها صارمة .. وامتدت يد شاب لتأخذ المظروفين ، وهمس الشاب وهو يجلس بجوار المرشد المصرى مرسى الشتيوى :

ــ كابتن انطونيو .. أنا وكيل نيابة الجمرك بالاسكندرية ! ..

وانتهى كل شيء ! ..

بعد بضعة أيام كانت شرفة « الاسكواش راكيت » قد ازدحمت بالمتفرجين .. وكانت المباراة فى الملعب محتدمة .. وكان « عمر حمدى » هناك يلاعب سعيد . وكان مصمماً على الأخذ بالثأر !!

الســــودانــى

فى أعقاب حرب يونيو عام ١٩٦٧، سرى في القاهرة، كما فى جميع البلدان العربية ـ وربما فى العالم كله ـ اعتقاد راسخ بأن المخابرات الاسرائيلية قد استطاعت الوصول إلى نخاع الجهاز الحاكم فى مصر.. وأنها مخابرات «لا تقهر» ولا سبيل إلى التغلب عليها !!

فى تلك الأيام، لم يفتح أحد من هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة فمه بكلمة واحدة.. كانت «الحقائق» التى يملكونها أغرب من الخيال..

وهذه القصة واحدة من تلك «الحقائق» التى وقعت فيما بين عامى ١٩٥٩ و١٩٦٣، فى القاهرة، الخرطوم، اسمره، بون، بروكسل، فرانكفورت، و.. وتل أبيب.. و..



وهى قصة ، مجرد قصة من عشرات القصص التى تزخر بها تلك الملفات السرية ، التى إذا ما طلبت أن تنشر ــ كحقائق ــ على الناس ، غمغموا قائلين : الأمن .. الأمن .. الأمن .. !! وهذه هى حجتهم الكبرى للصمت العميق ! ..

فى صباح يوم ٦ ديسمبر عام ١٩٦٣ ، كان واضحاً أشد الوضوح ، أن ثمة حركة غير عادية كانت تجتاح « الموساد » المخابرات العامة الاسرائيلية ــ ففى صبيحة ذلك اليوم كان الجميع فى انتظار برقية من القاهرة .. وكان وصول البرقية يعنى بالنسبة إليهم الكثير .. كان يعنى أن الحلقة قد اكتملت ، وان العمل المضنى والشاق ، الذى بذلته مجموعة من أكفأ ضباط المخابرات الاسرائيلية على مدى أربع سنوات انفقوا فيها ما يقرب من عشرة آلاف جنيه استرلينى سوف يكلل أخيراً بالنجاح .. ان وصول البرقية كان يعنى ببساطة أن ثمة قناة قد فتحت فيا بين أوربا وافريقيا ، وأن المعلومات الهائلة التى تحملها هذه القناة سوف تصب بالتأكيد فى تل أبيب .. بعد أن تكون مصر قد وقعت تماما تحت سيطرة المخابرات الاسرائيلية ! ..

وعندما دقت الساعة العاشرة تماماً ، فتح جهاز اللاسلكى مع القاهرة ، وساد الصمت فى غرفة الاستماع التابعة للموساد ، وانطلق الصفير من الجهاز ــ فى الموعد تماماً ــ يحمل الرسالة

بالشفرة التى تعودوا عليها طوال ما يقرب من أربع سنوات .. ولم يكن من الصعب حل الشفرة بسرعة ، غير أن الكلمات التى تراقصت أمام عينى ضابط المخابرات الاسرائيلى ، جعلت الامر كله وكأنه نكتة ، أو كارثة .. وطلب الضابط اعادة الارسال مرة أخرى .. وعاد الصفير المتقطع من جديد قويا ، واضحاً ، وعادت الرموز ــ هى هى ــ تتراقص أمام عينيه كألسنة لهب ، نفس الرموز ، نفس الحروف ، نفس الكلمات .. هل هذا معقول ؟ . هل هو ممكن ؟ وللمرة الثالثة طلب ضابط المخابرات الاسرائيلى من عميله فى القاهرة أن يعيد ارسال البرقية .. وعاد الصفير من جديد لينفجر فى « الموساد » انفجارا مدويا .. كانت البرقية تقول :

ــ المخابرات العامة المصرية تبعث اليكم بشكرها على ما لقيته منكم من تعاون ، وما قدمتموه لها من خدمات طوال السنوات الأربع الماضية .. وهى إذ تنهى معكم هذه العملية ، تنتظركم فى عملية أخرى !!

■ ■ ■

ما أن انتصف عام ١٩٥٩ ، حتى بات واضحاً أن المخابرات الاسرائيلية قد نقلت مركز تجسسها فى افريقيا ، كانت دول افريقيا تستقل الواحدة بعد الأخرى ، وكانت اسرائيل تقفز إلى هذه الدول لتدق فى أراضيها أوتادا تساعدها

على التغلغل إلى صلب البناء الاقتصادى والسياسى لدول القارة البكر الغنية.. وإذا كانت المخابرات المصرية فى تلك الأيام، قد استطاعت أن تضع يدها على واحد من أخطر عملاء اسرائيل فى القارة السوداء، وإذا كان هذا العميل يشغل مركزاً سياسياً وشعبياً حساساً فى احدى الدول الافريقية.. فلقد كان من الطبيعى أن تتسلل اسرائيل ــ عن طريق هذه الدولة ــ إلى السودان.

وفى الخرطوم، وبالتحديد فى شارع الجمهورية، كان هناك محل خردوات صغير، يملكه يهودى اسمه «ابراهيم منشه».. وكان لابراهيم منشه هذا بالذات تحركات بدت مريبة وتبعث على الشك، كان يسافر إلى أسمرة ــ التى تقع على نفس خط العرض، وعلى مسافة بضعة مئات من الكيلومترات من الخرطوم ــ سفرات مريبة، كما كان يسافر أحيانا إلى أوربا.. غير أن سهراته الحمراء التى كان يقيمها فى بيته لاصدقائه من السودانيين، كانت بلا شك وسيلة فعالة لنشاطه السرى..

ولقد تعرف ابراهيم منشة فى اغسطس عام ١٩٥٩ على شاب سودانى ولد فى القاهرة، كان «اسماعيل صبرى عبد الله» من أب سودانى وأم مصرية، وكان يشغل وظيفة كتابية فى سلاح المهندسين بالجيش السودانى.. وفى بيت ابراهيم منشة بدأت العلاقة تنمو بينه وبين اسماعيل الذى كان يبدى دهشته

الشديدة للاسراف الذى كان ابراهيم يغدقه عليه.. ويوما بعد يوم، وليلة بعد ليلة، بدأت الأحاديث بين الصديقين، وإذا كان مرتب اسماعيل صغيرا ولا يكفى لمجاراة صديقه فى تلك السهرات الحمراء، فإن الصديق يعرض عليه أن يجد له عملا بمرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر..

وقال اسماعيل: «ايدى على كتفك!..»

وفى البداية، ظن اسماعيل صبرى عبد الله، ان المسألة كلها لا تتعدى الاشتراك فى بعض عمليات التهريب.. ذلك أن الحديث مع ابراهيم، وان كان غامضا، إلا أنه كان يطوف حول السفر إلى القاهرة، أو أسمرة أو أوروبا.. وأبدى اسماعيل موافقته التامة.. كان يعرف طريقه إلى سلطات مكافحة التهريب.. غير أن ثمة شيئاً غريبا جعله يتوجس، شيء كالالهام أقرب.. وأن كان الأمر يتعلق بالتهريب حقاً، فلم اللف والدوران؟ ولم الغموض الذى يلف كل شيء؟!

لم يكن اسماعيل صبرى عبد الله يعلم فى تلك الأيام، أنه سوف يخوض تجربة العمر كله خلال السنوات القادمة، لم يكن يعلم أنه ــ بعد أن يوافق ــ سوف يوضع تحت مجهر الصبر والانتظار لما يقرب من عام كامل كان كفيلاً بأن يفتت أقوى الأعصاب..

ويوم أن قال له « ابراهيم » أن عليه أن يسافر إلى القاهرة ليجمع بعض الأخبار والمعلومات ، انكشف الغموض ، وأيقن اسماعيل أن عليه ــ ان وافق ــ ان يصبح جاسوسا !!

كان الطريق إلى سلطات التهريب معروفا .. ولكن. أين هو الطريق إلى « رجال المخابرات » ؟!

عند هذه النقطة بالذات ، يصبح الأمر عسيراً على التفسير.. فهل كان اسماعيل صبرى واحداً من رجال المخابرات العربية تسلل إلى عرين الاسد بشجاعة ، أم أنه استطاع أن يتصل برجال المخابرات المصرية واضعاً الأمر بين أيديهم ؟!

وإذا كانت « المعلومة » التى تقدمها المخابرات العامة المصرية تقول بالحرف الواحد : « أن المسألة لم تحتمل منه أكثر من حديث تليفونى وجد بعده رجل المخابرات المصرية يقف أمامه ! » .. الا أن التجربة المريرة التى خاضها هذا الشاب السودانى تقول بوضوح : هل من الممكن أن يحتمل أى منا ، مثل هذه المخاطرة إلا اذا كان مدربا تدريبا على أعلى مستوى عرفه هذا العالم السرى ؟! ..

وعلى كل .. فلقد أبدى اسماعيل صبرى عبد الله موافقته الكاملة لابراهيم منشه .. حتى يوم أن صارحه ابراهيم بأنه سوف يعمل مع المخابرات الاسرائيلية وافق واصبح عضوا فى شبكة

تمتد من الخرطوم إلى أسمرة إلى القاهرة .. وكانت الخطة الموضوعة ، تأمل أن يصل ذراع الاخطبوط إلى ألمانيا ..

ولكن كل شىء توقف فجأة ..

كانت شبكات التجسس فى القاهرة قد بدأت تسقط بشكل يلفت النظر ، وإذا كانت المخابرات المصرية قد اعلنت عن « بعض » هذه الشبكات وأخفت ضبط البعض الآخر ، فان المخابرات الاسرائيلية رأت أن تجمد نشاطها ، وأن تقبع ساكتة لفترة حتى يهدأ الجو تماماً .. وهو تكتيك معروف فى جميع أجهزة المخابرات فى العالم .. لكنه تكتيك جعل اسماعيل صبرى ينتظر ، ويصبر ، وهو على اتصال دائم بابراهيم منشه ، لعام كامل ..

هنا .. وفى منطقة الانتظار هذه ، يصبح الأمر فى منتهى الخطورة ..

كان على اسماعيل أن يسير فوق شعرة ، لا يتكالب ولا ينقطع ، لا يثرثر ولا يبدى القلق .. كانت فترة الانتظار ، فوق أنها كانت سكونا ينطلق بعده الثعلب الاسرائيلى من جديد ، فلقد كانت اختبارا للعميل الجديد ومدى قدرته على الاحتمال ..

فى يوليو عام ١٩٦٠ استدعت المخابرات الاسرائيلية ابراهيم منشه إلى أسمرة .. المركز الجديد الذى اتخذته المخابرات

الاسرائيلية لنشاطها فى افريقيا .. وكان التقرير الذى قدمه ابراهيم منشه عن اسماعيل صبرى من الدقة بحيث كلفته بارسال اسماعيل إلى أسمرة فوراً ..

■ ■ ■

فيما بعد، قال اسماعيل صبرى عبد الله، أنه ــ فى خلال السنوات الأربع التى عمل فيها مع المخابرات الاسرائيلية لحساب المخابرات المصرية ــ شعر بالخوف ثلاث مرات، كانت المرة الأولى فى بنسيون كاليتيا بأسمرة ..

كان ابراهيم منشة قد زود اسماعيل بجواز سفر، وقدم له تذكرة الطائرة من الخرطوم إلى أسمرة، ونصحه بالتوجه إلى بنسيون كاليتيا فور نزوله من المطار.. وفى هذه الحالات لا يصبح على الجاسوس أن يسأل أو يستفسر.. أن عليه أن يطيع فقط، ولقد أطاع اسماعيل صبرى.. ركب الطائرة وفى ذهنه جملة ظل ضابط المخابرات المصرى يرددها فى أذنه: لا تتصنع، ولا تدع الشجاعة، إذ انتابك الخوف فاترك نفسك له ولا تقلق.. ولقد ترك اسماعيل صبرى نفسه للخوف بالفعل عندما واجهه «يوسف»، وهذا اسم ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى التقى به فى البنسيون، كانت لحظات غريبة تلك التى مر بها هذا الشاب السودانى الذى رفض أن يخون، دقق يوسف فى عينى اسماعيل وسأله:

ــ أنت مصمم تشتغل معانا ؟! ..

ــ أيوه مصمم ! ..

و.. و.. وبدأت بعد ذلك سلسلة لا نهاية لها من الاسئلة الاختبارية، أحس اسماعيل فى نهايتها أنه أصبح منهكا .. وكان آخر ما قاله «يوسف»: مهمتــك ستكون فى القاهرة :

ثم تركه ومضى ...

وظل اسماعيل فى غرفته بعد ذلك ــ حسب التعليمات ــ لا يغادرها، ظل جالساً وحده يضرب أخماساً فى أسداس، ماذا لو اكتشفوا أمره، وهل يعقل أن يكون ذكاء المصريين أعلى من هذا النوع من الذكاء الوحشى الذى واجهه فى عينى يوسف .. ساعة بعد ساعة .. جاء الليل وانتصف، وعندما فتح الباب توترت أعصاب اسماعيل، لكنه بعد دقائق، ودون كلمة، كان يسلك طريقاً خفياً ودون أن يراه أحد من نزلاء البنسيون، لينتقل فى نفس الليلة إلى فندق فيكتوريا بشارع هيلاسلاسى.. وهناك، كان عليه أن يظل لخمسة عشر يوما كاملة فى تدريب شاق.. واذا كان يوسف هو الذى اصطحبه من بنسيون كاليتيا إلى فندق فيكتوريا، فان ضابطا اسرائيليا آخر كان فى انتظاره هناك، ضابط اسمه «ليون»، وكان ليون هو مدربه فى التصوير والتحميض الفوتوغرافى، كان مدربه فى كتابة الخطابات بالحبر السرى، وبالشفرة واخفاء

الأقلام و.. و.. وكان عليه بعد التدريب أن يعود إلى الخرطوم لينفذ ثلاث مهام:

الأولى: أن يستقيل من عمله.. والثانية.. أن يتسلم من ابراهيم منشه أدوات كاملة للتصوير.. والثالثة: أن يبدأ العمل وارسال المعلومات لهم على العنوان التالى فى أسمرة: «جرماى تسفو ص. ب. ٦٥»

لكن اسماعيل عاد إلى الخرطوم ليقدم استقالته، ويبحث عن ابراهيم منشه فلا يجده.. وأرسل لهم قائلاً: إن الاستقالة قد قبلت لكن «منشه» ليس موجوداً فى الخرطوم.. فعادوا يطلبون منه أن يركب الطائرة إلى الخرطوم!

إلى هنا، ومن الممكن أن يبدو كل شىء عاديا.. ولكن كيف؟!

كيف يكون ابراهيم منشه عميلا اسرائيليا بهذه الخطورة، ولا تعرف مخابراته أنه ليس موجودا بالخرطوم فى الوقت الذى ارسلوا له فيه عميلاً مثل اسماعيل؟!

سؤال يطرحه الذهن ليجد الاجابة: «فلقد كانت رحلة اسماعيل هذه ـ دون شك ـ لمراقبته، ومعرفة ما إذا كان على اتصال بأى أحد.. ولقد كان اسماعيل على اتصال بالمخابرات المصرية بالطبع، بل، ولقد التقى بضابط المخابرات المصرية

بالطبع، بل، ولقد التقى بضباط المخابرات المصرى وقص عليه ما حدث وتلقى منه التعليمات، ولكن اتصالاته كانت من الدقة والسرية بحيث استدعوه مرة أخرى، ليدربوه على الاستماع الدقيق للاشارات اللاسلكية، وليرفعوا مرتبه من ثلاثين جنيها فقط، إلى مائة جنيه استرلينى فى الشهر الواحد.

■ ■ ■

وصل اسماعيل إلى القاهرة فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٦٠، وكان مزوداً بكل شىء، وكانت التعليمات الصادرة إليه واضحة أشد ما يكون الوضوح، لكن أهم ما فى هذه التعليمات هو تجنيد ضابط فى سلاح الطيران المصرى.. فهل كان من الصعب عليه أن يقوم بمهمته؟!

لقد قامت المخابرات المصرية بأخطر لعبة من الممكن أن يلعبها جهاز مخابرات فى العالم كله!..

ليس مبعث الخطورة أن حياة اسماعيل صبرى عبد الله، وهو مواطن عربى وضع عنقه على كفه وخاض معركة يستخدم فيها أرقى أنواع الذكاء البشرى فقط.. بل كانت الخطورة تكمن فى «الهدف» الذى تسعى إليه المخابرات المصرية..

فى تلك الأيام كانت المخابرات الاسرائيلية تلعب لعبتها فى أوربا.. كانت معسكرات الشباب اليهودى فى ألمانيا تحاول أن

تبث فى وجدان الشباب الألمانى ذات الاحساس بالذنب تجاه اليهود .. ومن خلال هذا كانوا يستخدمون الشباب الألمانى لمصلحة اسرائيل . ولقد كان واضحاً منذ البداية ، أن ثمة قناة سوف تمتد بين الشباب الافريقى والشباب الأوربى لخدمة أغراض اسرائيل .. وكان هذا فى حد ذاته « هدفا » وضعته المخابرات المصرية نصب أعينها .. فهل كان مقدراً لها أن تنجح ؟!

كانت المعلومات التى أرسلها اسماعيل إلى أسمرة شديدة الأهمية ، وشديدة الخطورة فى نفس الوقت .. كان أهم هذه المعلومات على الاطلاق ، ان اسماعيل استطاع تجنيد ضابط فى السلاح الجوى المصرى .

وكانت المفاجأة التى تلقاها اسماعيل ، ويقينا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية ، ان اسمرة أرسلت تطلب من اسماعيل أن يعود !!

وكانت هذه هى المرة الثانية التى شعر فيها اسماعيل بالخوف .

قال اسماعيل عن هذه المرة :

ــ جلست أمام ثلاث من ضباط المخابرات الاسرائيلية جاء اثنان منهم خصيصاً من تل أبيب ، وظل الثلاثة لساعات طويلة

يلاحقوننى بالاسئلة ، اسئلة أسئلة اسئلة .. حتى جاءت لحظة فكرت فيها .. ماذا لو قتلونى ، لو مزقونى ، لو أذابونى فى محلول .. لن يشعر أحد !

وعندما جاء الاستدعاء من أسمرة إلى اسماعيل .. كان هناك احتمالان لا ثالث لهما .. الاحتمال الأول أنهم قد ابتلعوا الطعم الذى ألقمتهم اياه المخابرات المصرية . ذلك الطعم الذى تمثل فى المعلومات التى وضعت بدقة متناهية .. فليست أية معلومات تصل إلى جهاز مخابرات من عميل تؤخذ كقضية مسلم بها ، أنها توضع تحت عشرات الاختبارات . وتدخل عددا لا بأس به من العقول الالكترونية تمتحن صدقها ودقتها .

وكان الاحتمال الثانى ، أن الأمر كله قد انكشف ، وأن العملية كلها قد ضاعت ، وأن ــ ربما ــ حياة اسماعيل قد تصبح فى خطر داهم ..

وقبل أن يستقل اسماعيل الطائرة إلى الخرطوم ، كان قد لقن تماما بما يجب عليه أن يفعله ، كيف يجيب عن كل سؤال يوجه إليه .. كيف يتصرف فى المأزق كيف يبدو ، كيف ــ حتى ــ يتنفس !

وكانت المفاجأة التى صفق لها البعض ــ فى صمت !! ــ أن نتيجة الاختبارات المضنية لم تأت بالمرجو منها فقط ، بل قرر الخبراء الثلاثة أن اسماعيل صالح تماما للتدريب على الارسال

والاستقبال اللاسلكي، وأنه قادر على تمييز الاسلحة وأنواعها، ونفنيد المعلومات وتصنيفها .. و.. وظل اسماعيل فى اسمرة أربعة أشهر كاملة . أربعة أشهر بدت للشاب السودانى وكأنها دهور بعد دهور، كان يتلقى خلالها تدريبات عنيفة على كل شيء .. كما كان أيضاً تحت مراقبة من نوع رهيب مراقبة كانت تحصى عليه أنفاسه، بل وأحلامه !!

وليس هذا تعبيراً لغوياً بأى معنى من المعانى .. فبالفعل، يصبح حساب الأحلام فى مثل هذه الحالات أمراً شديد الضرورة .. أما كيف يحدث هذا ؟ .. فهذا أمر لا يعلمه إلا المتخصصون !

بعد أربعة أشهر، ركب اسماعيل الطائرة من أسمرة إلى الخرطوم .. ومن الخرطوم إلى القاهرة !

■ ■ ■

عندما كانت اللعبة تدخل دوراً آخر شديد الخطورة .. عندما راحت المخابرات المصرية تتبادل مع المخابرات الاسرائيلية رسائل الشفرة بالمئات، حدث مالم يخطر ببالهم هناك، لكنه كان بالطبع واليقين، يخطر ببال الذين هنا !!

وقع اسماعيل فى الحب.

وكما تزوج أبوه من فتاة مصرية وقع فى حبها .. تقدم سماعيل لخطبة فتاة مصرية بعد أن أعطته المخابرات المصرية النور الأخضر .. ولكن، كان عليه أن يتصرف فى المأزق.

وإذا كانت ثقة الاسرائيليين به قد بلغت حدا جعلهم يرسلون إليه فى القاهرة عميلا لاستلام بعض الخرائط والصور، فان السخرية والاطمئنان بلغت بالمصريين حدا جعلهم يتركون العميل الاسرائيلى يدخل إلى القاهرة، ويلتقى باسماعيل، ويأخذ منه الوثائق، ويخرج بها آمنا.

وبدأ اسماعيل صبرى عبدالله يعانى فى حبه .. كانت خطيبته إذا ما سألته عن موعد الزواج، تهرب .. لم يكن يدرى متى يستطيع الزواج .. كان «عميلا مزدوجا» بارعا، وعبقريا، نعم .. لكنه كان بشرا يحب.

ولقد كانت خطيبته مغرمة به، فصبرت، وابتلعت عشرات الاسئلة التى لم تجد لها جوابا.

ثم .. ثم استدعته اسرائيل إلى أسمرة مرة أخرى .. وكانت هذه المرة هى الخوف بعينه، كانت العملية كلها تصل الآن إلى ذروة درامية. فلقد كان هذا ــ فيما يبدو ــ اختبارا نهائيا تمهيدا لفتح تلك القناة المروعة بين شباب افريقيا وشباب ألمانيا ..

يومها .. سقط قلب اسماعيل بين قدميه ..

قال اسماعيل :

ــ فى هذه المرة أخذونى إلى بيت معزول فى أطراف المدينة ــ أسمرة ــ كان البيت كئيبا يقوم فى مكان خال من البشر والمبانى، وهناك أغلقوا على الأبواب والنوافذ وتركونى وحدى، وحدى تماما، لا خادم ولا رفيق، لا حس ولا حركة وتعليماتهم الصارمة المشددة : أوع تبص من الشباك، أوع تخرج من الباب، أوع حد يحس أنك هنا !..

وطوال الليل لم ينم اسماعيل، ولم يغمض له جفن.. هذه المرة لو قتل فعلاً فلن يشعر مخلوق على وجه الارض أن شيئاً قد حدث.. لم تكن هذه فقط هى المشكلة، كانت المشكلة أشد غموضاً، فعندما هبط من الطائرة فى مطار الخرطوم قادما من القاهرة كان يظن أنه ــ لو سافر أسمره ــ فلسوف يسافر بالطائرة كما تعود.. لكن الأوامر التى صدرت إليه أن يسافر إلى أسمرة عن طريق البر، وبدون جواز سفر.

ولقد سافر إلى أسمره بطريق البر، ولم يكن معه بالفعل جواز سفر، وعند الحدود بين السودان وبين الحبشة كان كل شيء مرتبا وممهدا، ودخل إلى أسمره، ووصل إلى هذا البيت المنعزل وليس هناك ما يثبت حتى مغادرته للسودان..

كانت أياما مضنية تلك التى سبقت التعليمات الجديدة التى أعطيت له..

ولقد تحمل اسماعيل صبرى عبد الله الكثير، وضاعف من جهده وهم يدربونه من جديد، وعلى مستوى أعلى فى الأرسال، والاستقبال اللاسلكى.. وعندما انتهت فترة التدريب. عاد اسماعيل إلى مصر مرة أخرى كان هذا فى النصف الثانى من عام ١٩٦٣، وكانت سنوات أربع قد مضت منذ أن حاول تاجر خردوات يهودى فى ١١١ شارع الجمهورية بالخرطوم، واسمه «ابراهيم منشه» تجنيد اسماعيل صبرى عبد الله لحساب المخابرات الاسرائيلية.. أربع سنوات اكتملت فيها الخطة هنا وهناك.. وأصبحت القناة جاهزة الآن لتتدفق فيها المعلومات بدقة متناهية من مصر إلى أوربا إلى تل أبيب. ولقد كانت مخابرات اسرائيل تستعد لهذا اليوم ــ ايضاً منذ سنوات، عندما وضعت أعينها على «هوتير نميستر فروالد»، الطالب الألمانى الذى كان يجيد الانجليزية والفرنسية واليونانية واللاتينية والعبرية غير لغته الاصلية.. والذى دخل معسكر الشباب اليهودى ليصبح جاسوسا لاسرائيل، وليسقط ــ فى أول عملية له ــ فى أيدى المخابرات المصرية، وليحدث سقوطه دويا هز أرجاء «الموساد»، وجعلهم يطلبون اعادة برقية ساخرة، ثلاث مرات، وكأنهم فقدوا السمع.

■ ■ ■

جلس اسماعيل صبرى عبد الله بجوار خطيبته، كان فى تلك الليلة يبدو كأنه قد أزاح من فوق كاهله عبئاً ثقيلاً..

وكان وجهه يوحي بالراحة ، نظرت إليه خطيبته وراحت بالحب تحاول أن تستشف ماوراء هذا الاحساس الغامض بالراحة ..

ــ مالك يا اسماعيل ؟!

ــ نظر إليها مبتسما ولم يرد ..

ــ اسماعيل .. مالك ؟!

ــ افتحى التليفزيون .. فيه برنامج كويس عاوز اتفرج عليه ..

وفتحت الفتاة التليفزيون لترى خطيبها على الشاشة أمام عينيها .. اسماعيل الجالس بجوارها بدمه ولحمه .. كان يتحدث ، ويقول أنه كان جاسوسا لاسرائيل .

واطلقت الفتاة صرخة واحدة ، ثم سقطت مغشيا عليها .

■ ■ ■

كان اسماعيل قد سجل حديثاً تليفزيونيا يروى فيه القصة كاملة ..

و .. ولقد كان فروالد شاب ألمانى يعشق اللغات ، وكان طبيعياً أن يتعلم اللغة العبرية ، وكان مدرسه اليهودى هو « الفراز » الذى دفعه إلى معسكر الشباب اليهودى فى ألمانيا .. وكان هذا المعسكر بالذات ، هو « هدف » المخابرات المصرية ، كان بمثابة معمل لتفريخ الجواسيس فى ألمانيا .. ولقد اختبر

« فروالد » بعناية ليكون وعلى مدى عامين أول من يخترق القناة الموصلة فيما بين افريقيا واوروبا .. وكان « هدف » المخابرات المصرية أن تكشف طبيعة هذا المعسكر فتدمره ..

ولقد جاء « فروالد » ، وكان يحمل معه من الوثائق مايثبت كل شيء .. وقبض عليه فى نفس اللحظة التى التقى فيها باسماعيل ..

■ ■ ■

كانت المفاجأة بالنسبة لخطيبة اسماعيل مذهلة .. وكان هو ــ وقد أفاقت من الاغماء يفسر لها كل الغموض الذى أحاط به لاربع سنوات كاملة .. كان قد أرسل آخر البرقيات إلى الذين خدعهم بذكاء فاق ذكاءهم .. فلقد تبادل معهم ٦٠٠ إشارة لاسلكية و١٥ خطاباً بالشفرة ، و٤٠ طردا من القلويات المصنوعة بمعرفة الخبراء ، و٤ طرود من القلويات المصنوعة بمعرفة الخبراء ، و٤ طرود تحتوى على نقود مخبأة بطريقة سرية بعثت بها مخابرات اسرائيل ..

■ ■ ■

و .. كانت اشارة الشكر من المخابرات المصرية إلى المخابرات الاسرائيلية ..

ويظل السؤال معلقاً :

هل كان اسماعيل صبرى عبد الله ، مجرد شاب سودانى وقع اختيار الاسرائيليين عليه لكى يحولوه من مواطن عربى إلى خائن .. أم .. أم أنه كان شيئاً آخر؟ رجل دخل لعبة الذكاء من أخطر أبوابها ، وتعرض للموت ، والضغط ، ولعبة الصبر.. وانتصر ؟!

المجـــهـــول

في داخل هذا العالم المليء بالأسرار والغموض .. تنفجر بين الحين والحين تراجيديا من نوع عنيف .. تراجيديا يقف أمامها هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يخوضوا فى أرض زرعت بأخطر الألغام ، حائرين .. أن الانسان يتمتع ــ مهما كانت يده مغموسة فى الواقع والخطر ــ بقدر كبير من الحساسية ، وعندما تنفجر بين يديه مأساة من نوع معين ، فانه ينفعل بها انفعالا قد يفوق انفعاله لو أن الذى انفجر بين يديه كان لغما شديد الانفجار ! ولقد كانت مأساة هذا الجاسوس تحتوى على « مجهول » ظل يشكل علامة استفهام كبيرة ، حتى عندما أسدل الستار على الفصل الأخير ، ظلت علامة الاستفهام تؤكد أن هذا المجهول ، كان فى ثنايا النفس البشرية كالميكروب المتعسر على الكشف !!



سرى صوت المضيفة فى جو الطائرة الدافىء، تطلب من الركاب أن يربطوا الأحزمة ويكفوا عن التدخين.. كانت ميونيخ تبدو الآن من الجو مغلفة بضباب السماء، غير أن مبانيها كانت ترتفع فى الهواء كصناديق صغيرة بعثرت على ملعب للأطفال!

وفى العقد الذى يحمل رقم ١٠٢ كان يجلس المهندس أحمد عبد ربه، رجل الأعمال المصرى الذى اتسعت أعماله الآن لتشمل العديد من بلدان أوربا وآسيا، والذى أصبح مصنع البلاستيك الذى يديره فى روض الفرج، ينتج أنواعاً من البلاستيك غمرت أسواق افريقيا ووصلت إلى آسيا.. وإذا ما أراد أحد أن يراجع هذا الاسم فى الغرفة التجارية، فانه يقينا سوف يعثر على مهندس يملك مصنعا بهذا الاسم، وحتى نقابة المهندسين سوف تجد اسمه مدرجا فى قوائمها، ولقد كان جواز السفر صحيحاً مائة فى المائة، كما كانت كل الأوراق التى يحملها هذا الراكب فى حقيبته الخاصة، أو فى حقيبة ملابسه، منضبطة تماماً، ليس فيها خطأ واحد.

أطفأ المهندس «أحمد» سيجارته مطيعا لأوامر المضيفة الحسناء التى منحته فى ذلك الصباح البارد، ابتسامة دافئة.. كانت سوزى سمراء مصرية التقاطيع دعجاء العينين، ذات شعر أسود فاحم.. غير أن أجمل ما يلفت النظر فيها، كانت تلك الابتسامة المشرقة التى إذا ما بدت، غمرت تقاطيع الوجه كله!

ولقد لاحظ عدد من الركاب أن سوزى تبادلت مع الراكب الشاب كلمات أطلق بعدها ضحكات خافتة، كما لاحظوا أنها الحقته بعدد لا بأس به من فناجين القهوة السوداء.. كان أحمد يبدو وكأنه يستطيع أن يغزو عالم النساء بنفس القدرة التى يغزو بها عالم المال.. ففوق الخاتم الذهبى الثمين الذى كان يحلى أحدى أصابع يده اليسرى، كانت ملابسه، وتسريحة شعره، توحى بأننا أمام شاب مصرى يعيش حياته فى أوربا، وينعم بقدر لا بأس به من الثراء..

وعندما دارت الطائرة فوق مطار ميونيخ دورتها الأولى، كان أحمد قد غرق فى التفكير لأذنيه.. ولكن أحدا ــ بالطبع ــ لم يكن يعرف ما الذى كان يدور فى ذهنه فى تلك اللحظات الغريبة، كانت لحظات تشعره دائماً بأن الدم يرقص فى عروقه، عندما يقترب من الخطر، وعندما يواجه «المجهول» لأول مرة!..

ومنذ أن وقعت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧، خلع الاسرائيليون برقع الحياء، نسوا هزائمهم المثالية فى معارك الذكاء العنيفة، كما نسوا كل ما لحقهم من عار تحدثت به أجهزة المخابرات فى العالم كله.. وإذا كان أحمد ــ كضابط من ضباط المخابرات المصرية ــ يتمتع بقدر من الرومانتيكية غير مستحب فى مثل

عمله هذا الخطير. فإنه فى بعض الأحيان كان يدمع وهو يرى كيف انطلقت اسرائيل، فى كل أرجاء الأرض، تجند الجواسيس وتسقط الشباب والرجال، وتدفع بالعيون، من كل جنسية ومن كل ملة، إلى مصر، إلى قلبها تريد أن تنهشه!

كان اسمه الحقيقى هو «عمر حمدى»، وكانت النكسة قد اثبتت فى رأسه بضع شعيرات بيضاء أضفت على شبابه نوعاً من الرجولة الآسرة.. وكان فى طريقه إلى «ميونيخ» للكشف عن جاسوس بدا لهم فى القاهرة، وكأنه أصبح يتحرك فى ملعب ليس به غيره؟!

هبطت الطائرة أرض المطار، وفى نفس اللحظة التى لامست فيها عجلات الطائرة الممر انبعثت من عينيه نظرة غريبة، استقبلتها «سوزى» بسرعة جعلتها تخفى عن أشد العيون ذكاء..

وعندما استقبل «عمر حمدى» ـ أو المهندس أحمد عبد ربه ـ هواء «ميونيخ» البارد وهو يخرج إلى سلم الطائرة.. رمى ببصره إلى مبنى المطار، وكان يعلم، أنه، منذ هذه اللحظة قد بدأ مشواره الخطر..

كانت القصة قد بدأت منذ خمس سنوات بالتحديد فى عام ١٩٦٢

فى ذلك العام، وفى بداية الصيف، كانت مصر كلها تنتظر الثانوية العامة.. وفى تلك الاحياء التى تتكدس فيها العائلات المنتجة للاطفال، يصبح لتلك الأيام من كل سنة، مذاق خاص.. ويسود الحديث بين الرجال والسيدات والآباء والأمهات والشبان والفتيات، حول النتيجة، ولجان الرأفة، ومكتب التنسيق والجامعات.. وفى حى «روض الفرج»، وفى شارع يحمل اسم «الكركى» وفى شقة بأحد منازل هذا الشارع. كان «سمير» وسط عائلته، ينتظر ظهور النتيجة.. ولقد ظهرت، وكان مجموعه ٤١٪ فقط!

فى تلك الليلة نشبت معركة عنيفة بين سمير وبين والده.. كان الأب موظفاً يقترب من سن الاحالة إلى المعاش، وكان الأولاد يملأون البيت عليه ضجيجاً ومصروفاً وعذابا كان يصبه على سمير، الذى بالرغم من «خيبته» فى المدارس، كان يبدو «دون جوان» لا يهتم إلى بتصفيف شعره والعناية بملابسه وملاحقة الفتيات.. ولقد كان سمير حقيقة شاباً متفتحاً، كان فهلويا خفيف الظل سريع الحركة يعشق الحياة بعنف.. غير أن قسوة الأب عليه جعلته كارها لهذه الحياة التى عشقها.. ويوم أن ظهرت النتيجة، بلغ الجدل بين سمير ووالده هذه الدرجة التى كان يتصاعد إليها الخلاف بسرعة.. وانهالت فى تلك الليلة ضربات الأب على وجه الابن.. ضربات قاسية

لاترحم.. ولم يتدخل أحد، بل، لم يفكر أحد فى التدخل، فلقد كانت صيحات الأب وصرخات سمير، وأصوات الصفعات والشتائم، من علامات البيت المميزة..

ولقد مضت الشهور، مضت رهيبة مليئة بالعذاب، لم يجد «سمير» كلية تقبل هذا المجموع المزيل، كما لم يكن فى نية الأب والابن، قد تحول الآن ليصبح عذاباً يلاحق سمير اينما كان.. كانت الصفعات هى العملة المتداولة بينهما.. و.. و.. ولا أحد يدرى كيف فكر سمير فى السفر لا أحد يعرف، على وجه يقينى، كيف ومن اين جاءته الفكرة.. غير أنه عندما أعلن فى البيت، أنه سوف يسافر إلى أوربا، جاءه الرد من والده: «فى ستين داهية!»

وعندما وضع سمير قدمه لأول مرة على أرض المانيا الغربية. لم يكن يعرف كلمة واحدة من اللغة الألمانية.. غير أن هذه العقبة، لم تكن توقف طموح سمير، ولم تكن لتوهن من عزيمته.. كان ـ إذا مامرت به الأيام واقيمت أمامه العراقيل والعقبات ـ يتذكر مصر، ويقترن ذكرها بوالده، بالبيت، بالسباب، بالشتائم، بالصفعات.. كان إذا ماتلفت خلفه، لايرى سوى الكراهية فيشد من قامته، ويتابع السير، أى سير.. ويتابع البحث، أى بحث عن أى عمل..

كانت تلك أياما غريبة، أيام جاءت عليه كاد يموت فيها من الجوع، وأيام جاءت عليه كاد يموت فيها من البرد.. ولكن: كان الموت ـ جوعا أو بردا ـ ارحم عنده من العودة..

وبمثل هذا الاصرار، وبمثل هذا التصميم استطاع سمير، بعد أن درج فى اللغة الألمانية خطوات، أن يجد عملا فى احدى الشركات بمدينة ميونيخ..

يومها.. استعاد نشاطه، واستعاد «فهلوته»، واستعاد ابتسامته، وأصبح معروفا عنه فى الشركة، أنه نشيط، حبوب يعرف كيف يقيم علاقات مع الآخرين وكيف يكسب ودهم!!

■ ■ ■

فى المطار.. كانت إجراءات الجوازات قد انتهت بالنسبة للمهندس «أحمد عبدربه» رجل الأعمال المصرى، وكانت المضيفة «سوزى» قد تأخرت فى الطائرة لبعض أعمالها.. وعندما كانت تغادر مبنى المطار كان أحمد لايزال هناك.. وعندما وقفت وصافحت سمير، كانت تبدو وكأنها تعرفه منذ فترة طويلة، وتعالت ضحكات سمير، وتناولت أسئلته عن مصر وأحوالها وعن الركاب ولقد أعطته «سوزى» كل مايريد، وحانت منه ـ أثناء الحديث ـ نظرة نحو المهندس الشاب الذى كان الآن يخرج إلى المدينة.. لم يكن سمير يعلم ان

«عمر حمدى» قد «نقضه» من رأسه إلى أخمص قدميه، وان صورته قد انطبعت فى مخيلته محفورة بقوة التدريب على الحفظ، ورغم أن سمير راح يتحدث بالعربية بصوت عال حتي يلفت انظار هذا المهندس المصرى الانيق، الا ان صاحبنا مضى وكأنه لم يسمع شيئاً.. كان يبدو وكأنه يعرف طريقه جيدا، لذا.. فلقد مضى إلى خارج المطار لا يلوى على شىء..

وعندما ركب «عمر» سيارة تاكسى، كان يعلم يقينا أن مسألة العثور على الفندق الذى يقيم فيه سهلة كالبحث عن رقم مدرج فى دليل التليفون.. وكان الآن يستعد للجولة الخطرة..

■ ■ ■

فى عام ١٩٦٧ كان قد مضى على «سمير» قرابة أربعة أعوام وهو يعيش فى «ميونيخ» وإذا كان البعض قد اقتربوا منه قبل ذلك بقليل، فلم يكن من الصعب على أحد معرفة ميول سمير العدوانية تجاه بلده..

مجهول..

هو شىء بالفعل مجهول ولا يمكن تفسيره..

وخلال هذه السنوات الأربع لم يزر سمير مصر مرة واحدة، لا قبل النكسة ولا بعدها وخلال تلك السنوات لم يرسل سمير لأهله فى مصر سوى عدد يقل عن أصابع اليد الواحدة من

الخطابات.. كان «الفراز» الاسرائيلى أمام خامة جاهزة تماما.. لم يكن هذا المجهول الذى يدفع شابا مثل سمير إلى الحديث عن مصر بعداء هو معاملة والده له.. فالعلاقة بين الآباء والآبناء، مهما بلغت حدتها، تذوب الحدة فيها مع الايام، تذوب مع الغربة، تذوب مع الاحساس بالاستقلال.. ولقد كان سمير الآن مستقلا، وكان غريباً، وكان مغتربا لسنوات طويلة..

ولقد تعود صاحبنا أن يجلس على مقهى اسمه «برنسيس» فى «ميونيخ»، فى هذا المقهى كان يلتقى بالاصدقاء والصديقات.. بل كان يعقد الصداقات والصلات.. استخدم قدرته الفذة وخفة ظله فى ربط حياته بأرض ميونيخ وكأن فيها الخلاص.. وهل كان من الصعب على «هانز موللر» أن يعقد صداقة مع «سمير» فى ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٧؟!

«هانز موللر»، «ماكس»، «جورج» كلها أسماء كانت معروفة تماما لرجال المخابرات المصرية وعيونهم المنبثة فى أربعة أركان الكرة الأرضية، أسماء تتغير لوجوه ثابتة لا سبيل إلى تغييرها بتغيير المكان.. ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى علمت المخابرات المصرية بهذا اللقاء.. انهم هناك ــ هؤلاء الرجال القابعون خلف أسوار الصمت فى كوبرى القبة ــ سيقولون لك ــ كما تعودوا دائماً ــ أن هناك من جاء وأبلغ،

أن حرصهم الشديد على « التوعية » وتنبيه الناس ، يتضافر مع حرصهم على اخفاء « الاسلوب » الذى يعتبر قة القمم فى السرية والكتمان. ولقد كانت المعلومات المتوافرة لدى « هانز موللر» عن «سمير» كافية لأن يفاتحه فى الأمر مع اللقاء الثانى مباشرة.. لم يكن «سمير» فى حاجة إلى تمهيد، ولم يكن فى حاجة إلى مصيدة تورطه.. قال له هانز فى اللقاء الثانى :

ـ هل تريد أن تكسب مزيدا من المال ؟!

ورد عليه سمير وهو يتقافز فى جلسته :

ـ من يجرؤ على رفض المال ؟!

ـ أنا ضابط المخابرات الاسرائيلية !

كم ستدفعون ؟!

ـ حسب نشاطك وقدراتك !

وكان أمام «سمير» بعد هذا الحوار السريع ، طريقان :

أما أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عن مصر من خلال المصريين الذين يقيمون فى المانيا أو يترددون عليها .

وأما أن يقوم بعقد صلات مع المصريين الذين يجيئون إلى ميونيخ لتجنيد الصالح منهم لحساب المخابرات الاسرائيلية !

و . . .

واختار سمير أن يسير فى الطريقين معاً ؟!

مرة أخرى نعود إلى هذا « المجهول » الكامن فى نفس سمير كجرثومة متوحشة ..

لم تكن مصر فى أواخر عام ١٩٦٧ تحتمل خائنا مثل سمير.. ولقد كان سمير يعلم هذا يقينا .. وأبدا ، لم تكن تلك الكراهية التى تضخمت فى نفس ذلك الشاب المتفتح الفهلوى المحبوب القادر على عقد الصلات والصداقات وحلب الهواء لبنا فى أرض الغربة .. ابدا لم يكن هذا هو الدافع له للخيانة والاستهانة ، بل ـ وهذا هو المبكى فى الأمر كله ـ وإلى الحماس فى العمل وتجنبه الراغبين فى الانزلاق وبذل الجهد فى تدمير الوطن بعد كل ما أصابه ..

وتحت يدى « عمر حمدى » كانت كل المعلومات التى يقف لها شعر الرأس هولا .. كان الغرض من سفرته تلك هو اصطياد سمير والمجىء به إلى القاهرة لا أكثر، ولم تكن هذه عملية صعبة ، كان الصعب هو هذا الذى وقع فى أيدى الرجال فى القاهرة.. وإذا كان سمير يتقاضى مرتبا شهريا قدره ٥٠٠ مارك ، علاوة على ٣٠٠ مارك يتقضاها عن كل مصرى يتم تجنيده ، بخلاف المكافآت والمصاريف ، فا الذى كان يدفع « الأب » أبو سمير الذى تجاوز الستين وأحيل إلى المعاش ، أن ينزلق خلف ولده بمثل هذا الاستخفاف وهذه السهولة ؟!

كان «عمر حمدى» يعلم الآن وهو جالس فى الفندق، أن «الأب» هو الآخر قد أصبح جاسوساً فى مصر، وان ولده هو الذى جنده.. كما كان يعلم ــ يقينا ــ أن سمير يجلس الآن فى «هول» الفندق وعيناه على المصعد فى انتظار المهندس «أحمد عبد ربه»، الذى جاء إلى ميونيخ لعقد صفقة تجارية لحساب مصانعه فى روض الفرج.. نفس الحى الذى نشأ فيه سمير وتربى..

وخلال العامين الماضيين استقبلت أوربا، والمانيا الغربية بالتحديد، اعدادا من المصريين لم يسبق أن رأته المطارات والموانىء.. كان المصريون ــ والشباب منهم بنوع خاص ــ يزحفون إلى الخارج بحثا عن شىء ما، جاءتهم النكسة كصاعقة غير منتظرة قصمت منهم الظهر فراحوا يبحثون عن السبب فى كل مكان.. ولقد كان من السهل على سمير أن يقف فى المطار كلما جاءت طائرة القاهرة كى «يلاقى» هؤلاء القادمين من أرض الوطن كان من السهل عليه أن يعقد الصداقات مع موظفى المطار حتى لا يرتاب أحد فى كثرة تردده عليه.. كان من السهل عليه أن يساعد المصريين الآتين بحثا عن عمل أو متعة، وكان من السهل عليه أن يفتح مسكنه للذين لا يملكون أجر الفنادق المرتفع فى أوربا، وكان من السهل عليه أن يرشد أولاد بلدة إلى المتاجر والملاهى و.. ودور

المتعة التى أنشأتها مخابرات اسرائيل فى طول أوربا وعرضها.. ومهما كان الأمر، فلو أنك صادفت مصريا فى بلد غريب، فان حنينك إلى الدم واللغة يدفعك إلى وضع ثقتك فيه ومهما كانت حاجتك، ومهما كانت رغباتك، فلقد كنت دائما ما تجد سمير «جاهزا» تماما لتلبية أى شىء تريد، حتى ولو كان «لبن العصفور»..

■ ■ ■

هبط «عمر حمدى» إلى هول الفندق يحمل مفتاح غرفته، وفى لمح البصر، فى نفس اللحظة التى غادر فيها المصعد، كان قد شمل المكان كله بنظرة سريعة، وكان قد حدد ــ بالضبط ــ أين يجلس «سمير». وعندما خطا نحو مكتب استعلامات الفندق، كان يقيس، باحساس اكتسبه بالتدريب المسافة التى تفصله عن سمير مع كل خطوة كان يخطوها، وعندما سلم مفتاح غرفته واستدار، كان يعلم يقينا أنه سوف يصطدم بسمير، فتعمد أن ينطق «متأسف» باللغة العربية، وكأنه أخذ بالصدمة.. وكان فى هذا الكفاية، كان فيه الكفاية ليتهلل وجه سمير وهو يصيح مرحباً:

ــ متأسف... الاستاذ عربى؟

وهكذا القى «عمر» طعمه لسمير.. وبدأ يجذب السيارة ببطء وحذق..

فجأة .. وعلى غير انتظار .. وكانت خمس سنوات أو ست قد انقضت منذ رأى سمير والده لآخر مرة فى بيته الكائن بشارع الكركى بروض الفرج .. وجد سمير نفسه أمام ابيه فى ميونيخ ..

ودون تمهيد بدأت المعركة ..

ــ أنت ما تعرفش أنى انحلت على المعاش ؟!

ــ يا بابا ..

ــ ليه ما بتعتش فلوس علشان نعرف نعيش ؟! ..

ــ ماهو أنت ...

ــ أختك بتتجوز .. أجيب منين علشان أجوزها ؟

ــ أنت عاوز أيه ؟!

ــ عاوزك تخلى عندك دم .. هو احنا مش أهلك .. هو أنا مش أبوك !

و .. وأعطاه سمير ما أراد من مال ، فقط أعطاه المال ليرحل عنه ، ليتركه ، كى لا يذكره بالماضى .. وأخذ الأب المال وعاد إلى مصر .. لكنه عاد فأرسل يطلب مزيدا من المال ، ولم يرد سمير .. كانت حياته الجديدة قد امتصت كل جهده ، وكان قد استطاع أن يقدم للمخابرات الاسرائيلية عدداً لا بأس به من العملاء . وكانت القاهرة فى تتبعها لتلك الحركة النشطة ،

ولذلك الشاب الذى أصبح وكأنه كرس حياته لخدمة العدو ، قد وضعت يدها على الخيوط جميعاً .. كل ما فزع له الرجال الذين لا يعرفون الفزع .. هو انزلاق الاب العجوز وبمثل البساطة التى يشعل بها الانسان سيجارته ، لم يجد سمير وسيلة يتخلص بها من أبيه ، إلا بدفعه ، بنفسه ، إلى يدى « هانز موللر » .

كان الاب قد استسهل السفر إلى ألمانيا لمطالبة ابنه بالمال ، وكان الابن ، كلما الح الأب ، يزداد ضيقا بمطالب أبيه .. وكأنما كان هذا « المجهول » قد أمده بقوة خارقة على الايذاء ، فلقد قدم أباه إلى « هانز موللر » على أنه صديق له ، ثم تركهما معا ومضى لعمل وهمى .

وكانت المفاجأة سارة لضابط المخابرات الاسرائيلى .

فما أن فاتح الأب فى الموضوع ، حتى رحب الأب ، واتفق معه على مرتب شهرى ، فوق مكافأة تصل إلى ١٠٠٠ مارك لكل خطاب يحوى معلومات هامة .

كيف يمكن تفسير الأمر ؟!

هكذا كان « عمر حمدى » يفكر وهو يجلس إلى « سمير » فى بار الفندق بعد أن قدم كل منهما نفسه للآخر .. كيف يمكن تفسير تكالب الأب على عمله بنشاط رهيب .. كان قبل مغادرته ألمانيا قد تدرب على الكتابة بالحبر السرى ، والحصول

على المعلومات باثارة الغير، ووسائل المناقشة والمراقبة والفحص.. وعندما عاد إلى مصر اكتشف أنه يستطيع أن يجنى ألوف الماركات ببساطة لم تخطر له على بال.. كان يجلس ذات مرة فى أحد المحلات فسمع شابا يتحدث إلى حبيبته عن وحدة الصواريخ التى يعمل بها وعن اسلوب تشغيلها، فكتب هذا اليهم ؛ كان يركب الاتوبيس فيسمع من الناس اشاعات ومعلومات فيكتبها إليهم، كانوا يقولون له اكتب لنا بكل شيء مهما كان تافها.. فكتب وكتب وكتب، حتى أسعار الطماطم كان يكتبها.. فهل كان يدرى قيمة هذا بالنسبة للحرب النفسية الضارية التى كانت اسرائيل تشنها علينا فى تلك الأيام؟.. لم يفاتح ابنه بما فاتحه فيه «هانز موللر» كما ان الابن لم يفاتح أباه فى طبيعة عمله، كان كل منهما يعرف ما الذى يفعله الآخر لكن احداهما لم يصارح الآخر.. وهكذا.. هكذا وجد هذا «المجهول» الكامن كالجرثومة المدمرة بين الأب وابنه، حتى فى الخيانة!

فى تلك الليلة كان المهندس «أحمد عبد ربه» يدردش مع سمير حول مشروعاته.. وكان على يقين وهو يلقى بالطعم، من الخطوة القادمة، قال سمير:

ــ أنا أعرف واحد هنا فى ميونيخ ممكن يساعدك على الحكاية دى؟!

ــ ابتسم «أحمد عبد ربه» فى وقار، ونفث دخان سيجارته وسأل سمير:

ــ عاوز كام كوميشان؟!

هكذا يتحدث رجل الأعمال.. وهكذا أطمأن سمير تماما عندما سأله الرجل عن النسبة التى يطلبها كسمسرة.. وهكذا تحدد موعد لكى يقابل «عمر حمدى» ضابط المخابرات المصرى، «هانز موللر» ضابط المخابرات الاسرائيلى، للاتفاق على الصفقة!

■ ■ ■

هنا تمكن ذروة الخطر.. ولم تكن «اللعبة» كلها سمير أو والده، كانت اللعبة تضم عددا لا بأس به من الشبان الذين سقطوا فى أيدى سمير وهانز، وإذا كان البعض منهم قد عاد إلى القاهرة ليبلغ ويكمل حلقة المعلومات التى توفرت لجهاز المخابرات المصرى، فان البعض الآخر لم يفعل ذلك، وكان «عدد» هذا البعض الآخر لا يزال غامضا لا يبين..

وليس الذكاء من صفات رجل المخابرات المصرى وحده، وإلا كنا كمن يدفن رأسه فى الرمال ويخلق حول هؤلاء الرجال أساطير لا ظل لها من الحقيقة.. أن بعضا من رجال المخابرات الاسرائيلية، يتمتعون بقدرات غير عادية على هذا

النوع من المعارك التى يتقرر فيها مصير أخطر الأمور.. ولقد كان «عمر حمدى» ضابط المخابرات المصرى جاهزا تماماً فى اليوم التالى وفى الموعد المحدد للقاء.. كان يعلم أن من سيقابله سوف يحسب بالدقة كلها حركاته وكلماته.. وإذا كان هو قد تسلح بميكرفون صغير دقيق ليسجل الحديث مع جهاز فى حجم علبة الكبريت، فلقد كان يعلم يقينا أن خصمه قد فعل نفس الشيء وربما أكثر بما لايدريه عما يتفتق عنه الذهن البشرى من أجهزة شديدة الحساسية والخطورة..

كان الموعد فى المساء، فى مقهى قليل الرواد خافت الضوء..

كانا كثعلبين يستعدان للنزال.. كل الفرق بينهما ان الثعلب المصرى كان يعلم ماسيقوله الثعلب الاسرائيلى، وكان خوفه من شيء واحد.. أن تبدو عنه حركة، أو تصدر عنه كلمة، إذا ماوضعت تحت مجهر الدراسة والفحص، كشفت عن حقيقته..

وتم اللقاء..

■ ■ ■

أطلق «عمر حمدى» ضحكة مجلجلة سعيدة وأنا أسأله عما كان يشعر به لحظتها تهدلت خصلة من شعره ــ الذى أصبح

اليوم رماديا رغم أنه لم يصل بعد إلى الاربعين ــ فأزاحها بيده. نفث دخان سيجارته وقال:

ــ أبدا.. فى الحالات دى الواحد مننا بينسى نفسه، بيبقى مهندس فعلا، بيبقى «أحمد عبد ربه» أو بيبقى رجل أعمال، فى اللحظات دى بتحصل حاجة غريبة، بيوصل خوف الواحد على البلد درجة بتنسيه نفسه!

كان «عمر حمدى» عندما تقمص شخصية المهندس «أحمد عبد ربه»، يعلم يقينا أن هناك من سيذهب إلى مصنع البلاستيك الصغير فى روض الفرج ليسأل، وليجد أن صاحبه هو المهندس «أحمد عبد ربه» فعلاً، وأن رجل الأعمال المصرى ليس موجودا فى مصر، بل مسافر إلى الخارج، إلى المانيا بالذات!!

ومنذ مايقرب من ستة أشهر، كانت «بيوت الملذات» الاسرائيلية فى «ميونيخ» قد استقبلت عدداً غريبا من المصريين الذين كانوا يتلهفون على المتعة رغبة منهم فى التعويض.. كانت المعلومات التى وصلت إلى القاهرة عن هذه «البيوت» الاسرائيلية تحوى اسراراً مضحكة مبكية.. ان بعض هؤلاء الشبان الذين اصطادهم سمير وقدمهم إلى «هانز موللر» دخلوا هذه البيوت، ووسط الاضواء الحمراء والشراب واللحم الأبيض والنشوة فى ذروتها، كانوا يعرضون عليهم أفلاماً

ملونة لشخصيات عربية فى أوضاع يندى لها الجبين.. وكان بعض هؤلاء الشبان يصدم وهو يرى رجلا له مكانته واسمه ومركزه هاربا كما ولدته أمه فى حضن امرأة ما.. ربما كانت هى نفس المرأة التى ترتمى فى أحضانه الآن.. كانوا ــ فى هذه البيوت التى أنشأها جهاز المخابرات الاسرائيلى ــ يدمرون فى الشباب العربى كل احترام لبعض شخصياته.. من هؤلاء الذين دمرتهم هذه الأفلام.. اثنان من الشبان كانت المخابرات المصرية تسعى وراءهما فى طول أوربا وعرضها، بعد أن انزلقا، وخان، وراحا يضربان الأرض بحثا عن مأوى بعد أن انكشف أمرهما.

ولقد طالت المباراة بين «عمر حمدى» و«هانز موللر» فى هذا المقهى الخافت الضوء القليل الرواد فى أحد شوارع «ميونيخ» الهادئة.. طالت المباراة وتعددت اللقاءات وخطا عمر داخل عرين الاسد، لكنه كان يعرف مواطىء قدميه.. لم «يندلق» لكنه ابدا لم يمانع شأنه شأن رجل الأعمال الشاب.. غير أن «هانز موللر»، «اندلق» تماما، وابتلع الطعم حتى نهايته.. كان هذا عندما بدرت من عمر بعض المعلومات الهامة عن الصناعة فى مصر وكأنها جاءت عفو الخاطر، وسال لعاب الثعلب الاسرائيلى عندما راح المهندس «أحمد عبد ربه» يتحدث عن الاقتصاد المصرى حديث العارف بدقائق كانوا فى أشد الحاجة إليها!!

وعندما حان موعد السفر فى القاهرة، كانت هناك اتفاقات مبدئية، لكنها ليست نهائية.. وكان سمير، فى وداع صيده العظيم فى مطار «ميونيخ»..

وعندما أقلعت الطائرة من المطار وحلقت فى الجو، كانت حقيبة عمر السوداء الصغيرة تحوى الآن من الاسرار ما كان كافيا تماما.. وعندما نظر من نافذة الطائرة إلى المدينة وقد لفها الضباب، تنهد فى ارتياح..

■ ■ ■

بعد حوالى ثلاثة أسابيع، وصل إلى سمير خطاب من المهندس «أحمد عبد ربه»، وكان يطلب منه الحضور إلى القاهرة لبحث بعض خطوات الاتفاق تمهيداً لتوقيع العقد..

ولقد ظل «عمر حمدى» كمن يحبس أنفاسه لأكثر من ثلاثة أسابيع أخرى.. حتى جاءته برقية تبنىء بموعد وصول سمير إلى القاهرة!

فى المطار، كان المهندس «أحمد عبد ربه» فى انتظار سمير، وكان هذا قد اصطحب معه ــ لفرط الثقة فى نفسه ــ شابين المانيين فتى وفتاة ارادا السياحة فى مصر لعشرة أيام.. ولقد قام «أحمد» بالواجب، وتم بحث الخطوات بينه

وبين «سمير»، فتم الاتفاق تماما.. وعندما أبدى الجاسوس رغبته فى اصطحاب صديقه وصديقته فى زيارة للاقصر وأسوان، حجز لهم «أحمد» فى قطار الصعيد مقصورة كاملة.. ولقد سافر الثلاثة إلى أسوان، وإلى الأقصر.. وقضى الجميع وقتاً خرافياً.. وبعد أسبوع، كان القطار يتهادى بهم داخلا إلى محطة القاهرة..

وفى المحطة، كان «أحمد» فى انتظارهم، لكنه هذه المرة لم يكن وحده.. كان معه عدد من الرجال ذوى الملامح الجامدة.. ولم يفهم الشاب الألمانى وصديقته شيئاً مما كان يحدث أمامهما.. كل ما حدث هو أن طلب «عمر» من «سمير» أن يودع صديقته ففعل، وسار بين الرجال طائعا فى صمت نحو سيارة سوداء اللون، وكان يبدو شاحب اللون تماما.. أما هما، فركبا سيارة أخرى أوصلتهما إلى الفندق مع الاحترام الشديد.. والواجب.

فى أحد دهاليز مبنى المخابرات العامة المصرية، كان سمير يسير صامتا، كان الآن قد أيقن أنه وقع، فانهار تماما.. وعندما تقدم أحدهم إلى باب احدى الغرف وفتحه، دلف منه سمير ليجد والده قد سبقه إليها!

أفظع ما كان فى اعترافات سمير، هو ما يتعرض له بعض المصريين فى الخارج، فى بيوت المتعة التى أنشأتها اسرائيل

خصيصاً لاصطياد العرب، واغراقهم فى الملذات، وتجنيدهم، أو على الأقل، معرفة بعض المعلومات التى ينفلت بها اللسان أحياناً فى لحظات النشوة!.. ثم تصويرهم عرايا، وتسجيل أحاديثهم الماجنة!! غير أن الأقطع من هذا، هو «المجهول» الذى بدا كامنا كالوحش الغامض فى نفس الأب والابن معا وقد كاد كل منهما يمزق الآخر فى لحظة المجابهة.. هذا «المجهول» الذى لا يزال يجبر «عمر حمدى» حتى الآن، بحثا عن هويته دون جدوى!

الساذج

منذ البداية ، كانت الأخطاء التى وقع فيها هذا الجاسوس قاتلة .. وكان من الممكن أن يتم القبض عليه ومحاكمته فى الشهور الأولى لبداية نشاطه الهام .. غير أنه كان من السذاجة ، بحيث تركته المخابرات المصرية عشرة أعوام كاملة ، وهو يدبج التقارير ويراسل «الموساد» عبر جهاز اللاسلكى ، من قلب حى من أشد أحياء القاهرة ازدحاما .. ثم ، ولأن حرب أكتوبر كانت مندلعة بالفعل ، قبضوا عليه !



فى النصف الثانى من العقد الخامس من هذا القرن ، برزت فكرة عقد مؤتمر للدول الافريقية الاسيوية ، الذى حقق أول اجتماع له فى باندونج ، نجاحا مذهلاً ، ومن خلال هذا المؤتمر ، الذى كان بمثابة نقطة تحول فى السياسة العالمية ،

وبروز دور دول الحياد أو عدم الانحياز أو ما أطلق عليه فيما بعد، دول العالم الثالث.. برزت قيمة مصر وامكانيات قيادتها الشابة ــ فى ذلك الوقت ــ على مجابهة الاستعمار وتشكيل قوة دولية وضع لها كلا المعسكرين، الشرقى والغربى، ألف حساب..

وكان ان اختيرت «القاهرة» لتكون مركزا للسكرتارية الدائمة للمؤتمر الافريقى الاسيوى واصبح لكل دولة افريقية واسيوية مندوب دائم فى هذه السكرتارية، وبالتالى فلقد كانت هذه السكرتارية تشكل مركزا هاماً من مراكز الحركة السياسية فى العالم.

الأمر المهم فى هذا الموضوع، ان اسرائيل ــ فى تلك الايام ــ حاولت أن تنضم إلى المؤتمر بصفتها دولة اسيوية. وكانت معركة انتصرت فيها الشعوب العربية، بل، القيادة المصرية بالتحديد، التى استطاعت بالدبلوماسية والاقناع، أن تضع اسرائيل ــ لأول مرة ــ فى مكانها الحقيقى على خريطة العالم كدولة معتدية ومغتصبة لأراض لا تملكها..

من هنا، كانت أهمية الوصول إلى قلب سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى، ذلك، أن ما كان يحدث من اجتماعات داخل السكرتارية، وما كان يؤخذ من قرارات، كان بالضرورة، يشكل أهمية خاصة بالنسبة لاسرائيل التى عزلت

عن هذا العالم الذى حاولت فيما بعد التغلغل فيه.. بل، والسيطرة على بعض دوله..

■ ■ ■

كانت البداية هناك.. فى باريس.. بالتحديد، عندما خطا نبيل خطوته الأولى إلى بهو فندق جورج الخامس فى حى الشانزليزيه.. ورغم أنه كان قد تألق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملبس جديد، إلا أن مظهره كان يبدو شديد التواضع وسط ذلك الجو الفاخر المهول الذى استغرقه حتى النخاع منذ الدقائق الأولى..

كان نبيل واحدا من موظفى سكرتارية المؤتمر الافريقى الاسيوى الذين وقع عليهم الاختيار للسفر إلى كوناكرى للتحضير للمؤتمر الافريقى الاسيوى القادم، والذى كان سيعقد فى عاصمة غينيا.. لم يكن نبيل واحدا من نزلاء الفندق بطبيعة الحال، فلقد كان ــ مع زملائه ــ ينزلون بأحد الفنادق المتواضعة فى العاصمة الفرنسية.. كان أمامهم يومان أو ثلاثة، ثم يطيرون بعدها إلى جنيف.. ثم كوناكرى.. وكانت هذه الأيام الثلاثة، كافية تماماً، لأن تحدث البداية..

غير أن البداية الأولى كانت بعيدة كل البعد، كانت البداية عندما هاجر الاب اللبنانى الاصل من بيروت إلى

مصر .. كان رجلاً تقيا متدينا ، يعمل ممرضا مع احدى البعثات التبشيرية ، لكنه فى مصر ، فى السويس بالتحديد ، أحب فتاة مصرية فتزوجها ، وأقام فى مصر نهائيا ، وأنجب ثلاثة أولاد وخمس بنات .. وكان نبيل واحداً من الأولاد الثلاثة !

وكما يحدث كثيرا فى الاسر المصرية ، بل ، كما حدث فى رواية « بداية ونهاية » لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ توفى الاب فجأة ، وترك عائلته بلا عائل سوى نبيل ..

كان نبيل يحلم بأن يدخل كلية الطب وان يصبح طبيبا ، غير ان امكانيات الاب الذى أنجب ثمانية أولاد يريد أن يعلمهم ، لم تساعده على ذلك ، فكان أن أدخل نبيل مدرسة التجارة المتوسطة ، وتخرج فيها ، وكان من أول الموظفين الذين عينوا فى سكرتارية المؤتمر الافريقى الأسيوى التى أنشئت فى عام ١٩٥٨ ، ولم يمض عام حتى توفى الاب ، وأصبح نبيل هو العائل الوحيد للأسرة ..

ببساطة ، كان نبيل يعمل ليل نهار، كان يعمل بالسكرتارية فى الصباح ، وفى مكتب للآلة الكاتبة فى المساء ، حتى إذا ماجاءت رحلة كوناكرى عام ١٩٦٠ ، وكان طريق السفر إليها غير القاهرة ، باريس ، جنيف كوناكرى .. كانت هذه فرصة العمر.. سافر اذن ، وهو لا يدرى ما يخبئه له القدر، سافر وهو لا يعلم ما تخبئه له نفسه !!

كان على الموظفين أن يمكثوا فى باريس بضعة أيام ، ولم يكن أمام نبيل ، الذى تعود أن يكون وحده دائماً ، سوى أن ينزل إلى شوارع باريس ، يتسكع ويشاهد ، ويقف أمام الفترينات مبهور النفس بما يرى من أضواء وغنى .. حتى كانت ليلة ...

ليلة كان يقف فيها أمام احدى الفترينات التى تعرض من الملابس ما يسيل له لعاب أى شاب من أبناء الدول النامية ، وتصادف أن وقف بجواره شخص له مظهر الاجانب ، وان كانت ملامحه تشى بشىء من الشرق .. وحدثه الشخص بالفرنسية ، وارتبك نبيل ، فهو لا يعرف الفرنسية وأن كان يجيد الانجليزية ويجيد كتابتها على الآلة الكاتبة . وما أن تلعثم ، حتى ضحك صاحبنا هذا وحدثه بالعربية ..

صاح نبيل : « حضرتك بتتكلم عربى ؟! »

ورد الشخص : « أنا اسمى حسن ! »

وتصافح الشابان فى حرارة ، وكانت سعادة نبيل ، وهو يسمع اللغة العربية ، باللهجة المصرية الخالصة ، فى قلب باريس وأضواء باريس ، تفوق الوصف ، كان وكأنه عثر على كنز !

فى تلك الليلة ، قضى نبيل وقتاً طيباً ، كان حسن هذا مصريا يدرس الطب فى باريس ـ هكذا قال له الشاب !

ــ كان اسكندرانيا قحا، ينطق الحديث مسبوقا بنون الاسكندرية الشهيرة، ويمط الحروف كأى ابن بلد من الانفوشى أو السيالة .. وفى الليل، وبعد كأس أو اثنين .. كان الحنين قد استبد بحسن، فراح يسأله عن مصر وأحوال مصر.. راح يشكو له الغربة والوحدة والشوق.. ومما لاشك فيه، أنه رغم تأثر نبيل الشديد بما كان يسمع، إلا أنه كان سعيدا غاية السعادة ..

فى آخر الليل .. سار معه حسن متسكعا فى شوارع الشانزليزيه الباهرة.. واوصله حتى باب فندقه المتواضع... ولكن، على موعد للقاء فى الغد.. فى المساء، فى نفس البار الذى كانا يجلسان فيه ..

■ ■ ■

كان كتوما بطبعه .. كان منطويا ينظر إلى زملائه من خلف غلالة المسئولية التى القيت على عاتقه .. فى تلك الليلة أمطره زملاؤه بالعديد من الاسئلة، كانوا معا ساعة أن خرجوا للتسكع فأين اختفى، ولم يكن كاذبا عندما أخبرهم أنه «تاه»، لكنه لم يذكر أين كان، ومع من كان ! ..

كان حسن بالنسبة إليه كنزا اراد الاحتفاظ به واخفاءه، ربما، لأن هذا كان جزءا من تكوينه، وربما ــ وهذا هو

الأرجح ــ لأن حسن أسر إليه أن يكتم الأمر، فلقد أحبه وهو يريد أن يلتقى به وحده.

صدفة هى أم ان الأمر كان مدبرا أن يكون حسن بالذات، طالبا مصريا يدرس «الطب» حلم الأحلام والأمنية المتبددة مع الفقر وقلة الحيلة.. لا أحد يدرى غير أن الأمر ــ دون أدنى شك ــ كان له وقعة العنيف على نفس نبيل .. ولقد كان فى الموعد المحدد تماما، يقف أمام البار الذى اتفق مع حسن على اللقاء فيه.. كان مفعماً بالسرور دون شك .. فلقد وعده حسن أن «يعطا» معا هنا وهناك، أن يريه باريس وخفايا باريس.. غير أن أمرا كهذا، لا يمكن أن تكتمل بهجته قبل أن يشربا كأسين فى مكان يستطيع حسن أن يدفع فيه ثمن الكأسين.. ففى باريس تستطيع أن تشرب كأسا وتدفع فيه فرنكا واحدا، وتستطيع أن تشرب نفس الكأس، فى مكان آخر، وتدفع فيه ما يوازى مرتب شهر كامل !

فى البار.. جاءت جلستها بجوار جورج ..

هنا، ليس هناك مجال للتخمين. هنا، تصبح الخطوة والحركة، بل وحتى الكلمة، مدروسة مرسومة ومعدة بدقة وذكاء لاسبيل إلى النفاذ منها ..

وإذا ما « احلوت القعدة » ، وتبع الشبانان كأسا بكأس ، وإذا ما كان جارك وحيدا يشرب هو الآخر، وإذا ما افلتت منك كلمة بصوت عال ، فلابد أن يتصل الحديث .. ولقد اتصل ، ومال « جورج » عليهما بكلمة ورد عليه حسن بكلمة .. لأننا : « هنا فى أوربا الناس بسيطة مش معقدة زى عندنا » !

نفس الكلمات ، ونفس الاسلوب ، ونفس الذهن المخطط الذى يعرف كيف ينفذ من نقط الضعف عند الصيد الجديد .. وإذا كان حسن قد « لضم » مع جورج ، فلابد أن يشترك نبيل فى الحديث ، وإذا كان الحديث قد امتد فلم يجلس جورج وحده ، لم لا ينتقل اليهما .. ولقد انتقل جورج وجلس معهما ، وقدم لهما نفسه كصحفى فى احدى وكالات الانباء .. وما أن ذكر نبيل وظيفته فى المؤتمر حتى تهلل وجه جورج .. لقد كان يزمع السفر إلى كوناكرى ، لتغطية أنباء المؤتمر للوكالة ، كان يزمع السفر رغم أن مشاغله فى باريس كثيرة ومتشعبة ، رغم أن مصالحه كانت ستضار .. فلم لا يقوم نبيل عنه بهذه المهمة لقاء أجر؟!

ومن تحت المائدة غمزه حسن وهو يقول لجورج : « تدفع كام ؟! »

وفى لحظة وجد نبيل فى يده مائة فرنك مصاريف البريد ، وعنوانا فى الشانزليزيه ووعدا بالحساب يوم ينتهى المؤتمر، ويمر

بباريس فى طريق العودة إلى القاهرة وعندما هم نبيل بالحديث ، ولا يدرى أحد ما الذى كان ينوى أن يقوله ، عاد حسن مرة أخرى فغمزه من تحت المائدة .. وزيادة فى الاحتياط ، قدم له جورج رقم تليفونه ، طالبا منه الاتصال به كلما مر بباريس .. ثم ودعهما وانصرف ..

فى الليل ، وأثناء العودة ، كان نبيل يشعر بالسعادة ، فلقد كسب مائة فرنك دون ارتباط ، دون وعد .. وكان حسن يشجعه قائلا أن باريس شىء والقاهرة شىء آخر .. انهم فى أوربا يعطون لكل جهد ثمنه ، ولكل عمل أجره .. ولم يكن مطلوبا من نبيل سوى شىء واحد ، أن يرسل لجورج على العنوان المذكور، أخباراً من تلك التى تصدرها سكرتارية المؤتمر لتقدمها للصحفيين .. والتى كان يكتبها بيديه على الآلة الكاتبة لتطبع بعد ذلك على آلة الرونيو، فيوزع نصفها ، ويلقى النصف الآخر فى سلة المهملات !

■ ■ ■

فى كوناكرى لم يحدث شىء له قيمة ، عقد المؤتمر ونجح ، وكان نبيل طوال بقائه هناك ، يكتب خطابات إلى جورج ، يضمنها تلك الأخبار التى تنشر فى كل صحف العالم .. لم يكن صحفيا ليعلم أن مثل هذه الاخبار إذا ما أرسلت بالبريد إلى وكالة أنباء بالذات، تصبح شيئاً لاقيمة له ، بل ، إذا

ما وصلت إلى وكالة الانباء متأخرة دقيقة واحدة، أصبحت خبرا محروقا لا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به!

فى كوناكرى لم يحدث شيء له قيمة، لم يخبر نبيل غير أنه عندما عاد إلى باريس، وكان هذا فى فبراير عام ١٩٦٠، كان أول ما فعله أن طلب رقم «جورج» وظل جرس التليفون على الطرف الآخر يدق دون رد.. مرة ومرتين وثلاثا، دون جدوى..

لحظتها تذكر نبيل شيئاً غريبا..

لحظتها تذكر نبيل أن «حسن» لم يعطه عنوانا له ولم يعطه رقم تليفونه، ولم يعطه أسم الكلية أو المستشفى التى يدرس فيها.. لحظتها تذكر نبيل أن «حسن» لم يكن سوى «حسن» ولا شيء آخر، وأنه واحد من أهل باريس.. واحد من الذين يعيشون أحدا بما يفعل فلم يكن فيما كان يفعل شيء محرم.. فيها، فأين حسن؟!

ولقد مرت على نبيل لحظات صعبة، مريرة، كان تليفون «جورج» ــ رغم كل المحاولات التى بذلها ــ لا يرد، لا شيء سوى جرس يدق ويدق ويدق بلا مجيب مرات ومرات وعشرات المرات دون جدوى.. وأخيراً أخيراً لم يجد أمامه سوى العنوان الذى كان يرسل عليه الخطابات، فبحث عنه، حتى وجده..

وكانت الصدمة مروعة..

كانت صدمة اهتزلها نبيل حتى الاعماق..

كان العنوان لشركة من شركات السياحة، لم يكن وكالة أنباء، ولم يكن منزلا.. فتح الباب الزجاجي للشركة، وتقدم من الفتاة الشديدة الجمال الجالسة إلى المكتب الانيق، تقدم إليها متردداً، وهمس سائلاً عن: «مستر جورج!».. فأجابت الفتاة أن لا أحد هنا يحمل اسم جورج، حاول أن يفهمها أنه كان يرسل خطاباته من كوناكرى إلى جورج على هذا العنوان فتبدت الدهشة فى عينى الفتاة، وعندما ألح، أطلقت عليه من عينيها الخضراوين نظرة، نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تلقى به إلى الخارج!!

▪ ▪ ▪

هكذا وجد نبيل نفسه ضائعا تماما.. هكذا تبددت الاحلام التى حرص حرصه كله على الا يذكرها حتى لنفسه، كانت الاحلام تبنى قصورا فى الخيال... وان يترك عمله كتايبست وأن يصبح صحفيا خطوة نحو الهدف، وأن يظل كاتبا على الآلة الكاتبة ويأتيه دخل يساعده على الحياة وتربية اخوته، وان يتفرغ للمذاكرة بعد الظهر بدل الانحناء على آلة كاتبة أخرى.. حلم طالما تمناه.. وأن.. وأن.. وأن

ولكن ها هى الاحلام تتبدد فى مثل لمح البصر، وكان كل شىء ما كان، كان حسن ما كان، وكان جورج ما كان سوى اضغاث هلوسة كأس يشربها ذات ليلة فى بار متواضع بحى الشانزليزيه.

■ ■ ■

عاد إلى الفندق محطم النفس تماما، يائسا، مهموما، ضيق الصدر.. غير أنه ما كان يستقر فى غرفته، حتى استدعى لمكالمة تليفونية..

لأول وهلة أصابه الارتباك، وللوهلة الثانية تذكر «حسن»، وفى الوهلة الثالثة كان يقفز الطريق حتى التليفون، وما أن وضع السماعة على أذنه، حتى سرى فى الاسلاك صوت «جورج»، جورج، جورج نفسه.. بل الأكثر من ذلك أنه كان يعتذر، أن الفتاة لا تعرفه لأنها حديثة عهد بالمكان، جورج، جورج هو الذى يطلب لقاءه فلم يتردد.. وقبل، وانطلق لملاقاة المصير.. الأمل، الهاوية التى كانت تتفتح تحت قدميه وكان يسعى إليها!

يا للأحلام عندما تتلون بألوان الطيف السبعة فتحمل الانسان على جناحيها إلى جنة موهوبة.. يا للثقة تعود فتسرى فى نفس الانسان فتسكره بخمر أقوى من الخمر.. واذا كان

جورج يجلس الآن أمامه، وجها لوجه، عينا فى عين، واذا كان يناقش خطاباته وأخباره خطابا خطابا وخبرا خبرا.. إذا كان يثنى عليه ويشكره.. فكيف يتعامل مع أناس لهم مثل هذا القدر من الشرف، قال هذا لنفسه عندما قال له جورج أنه أخبر رئيس التحرير بأن نبيل هو صاحب الأخبار... وكيف، كيف يمكن للحظ أن يكون بهذا القدر من الكرم، وجورج يخرج من جيبه الف فرنك يعطيها لنبيل ثمن جهده.. وكيف، كيف يصدق أنه على موعد معه فى اليوم التالى، أن هناك اتجاها فى الوكالة لتعيينه صحفياً، وان الأمر فى يد مجلس الادارة الذى سيجتمع فى الغد ليقرر مصيره ؟!

وكيف يأتيه النوم ؟!.. كيف ؟!

ليلة هذه أم حلم الاحلام يرسله القدر على طبق الامانى خالصا.. كان احساسه بالأشياء غريبا ومثيرا، وإذا ما وافق مجلس الادارة فلسوف يدخل امتحاناً يضم رئيس التحرير وبعضا من أعضاء المجلس، وليست مجالس الإدارة فى أوربا مثلها مثل هذه التى فى مصر.. أن الموعد موعد، والاجتماع لابد أن يتم كل يوم..

وفى الغد.. الغد الذى يأبى أن يأتى. سوف يعرف مصيره. وأيا كان الأمر، ففى جيبه ألف فرنك حقيقة، اشترى منها، وانفق بعضها. وفى بعض الاحيان يصبح الواقع أزهى من الأحلام.

أعطوه الأمل ، ثم تركوه معلقا ..

رفعوه إلى قمة الاحلام ، ثم تركوه يهوى بلا معين ..

وفى لحظة اليأس العظمى ، تمتد إليه اليد عبر سلك التليفون لتنتشله ..

وهدفه هنا تصبح الفريسة سهلة المنال ، طرية اللحم بعد أن طهوها على نار القلق المدمر..

الغريب.. الغريب الغريب.. أن نبيل ــ أبدا ــ لم يسأل عن « حسن » ..

■ ■ ■

وهكذا جاءت البداية .. عندما التقى به فى ذلك البار المتواضع ، وزف إليه خبر موافقة مجلس الادارة على تعيينه ، ثم منحه خبرا أعظم .. أنه على موعد مع رئيس التحرير فى اليوم التالى ، فى بهو فندق « جورج الخامس » .

ودق قلب نبيل .. وهتف : « جورج الخامس » ؟!

ورد جورج ساخرا : « وأين تريد أن تقابل رئيس التحرير؟! »

وقبل أن ينطق نبيل ، كان جورج يقوم بما كان يدور فى خلده ، وسرعان ما دفع الحساب ، واصطحبه معه إلى أحد

محلات الملابس ، واشترى له بذلة وقميصاً ورباط عنق وجوارب و... وحتى ملابس داخلية .

وكان نبيل مستسلما تماما .. كانت الفريسة قد أصبحت طيعة ومطيعة .. ولم يكن هذا الذى يحدث مجرد تصرفات عفوية ، لم يكن نبيل يعلم ، أن كل حركة كل سكنة ، كل خطوة خطاها ويخطوها كانت توضع تحت مجهر أعين مدربة تدريباً عاليا .. ولم يكن يعلم ، أن انهياره قد وصل إلى علمهم قبل أن يصل إلى علمه ، ولم يكن يعلم أن استسلامه هذا ، كان دليلا قادهم إلى قلب قلبه ، إلى نقطة ضعفه .

وهكذا وجد نفسه يخطو إلى « بهو» فندق « جورج الخامس » ، ورغم أنه كان قد تأنق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملابس جديدة ، الا أن مظهره كان يبدو وسط الاضواء متواضعا .. كانت قدماه تغوصان فى أرض شديدة الليونة ، سجاد كالحلم ، جدران كالسراب ، ثريات كالنجوم ، أناس كالخيال ، نساء كحوريات جنة يحلم بها الانسان منذ أن كان .. ولكن ، ها هو، ها هو بلحمه ودمه فى فندق جورج الخامس يقدمه جورج لثلاثة : «مستر كنجز لى ــ ومستر ستانلى ، ومستر... وضاع اسم الثالث وهو يرى الرجال الثلاثة وكل منهم يمسك سيجارا يصل ثمنه إلى مرتب عشرة أيام .. وبدأ الحديث ، وبدأت الأسئلة ، وبدأ نبيل يجيب .. و...

وكم مضى من الوقت ، لا يدرى ، لا يدرى سوى أن مستر « كنجزلى » قال له فى النهاية :

ــ مبروك ! ..

ساعتها ، كان نبيل يبكى من الفرح ..

■ ■ ■

قبل أن ينفض الاجتماع . اصدر مستر « كنجزلى » أمره إلى مستر « ستانلى » بأن يتولى مسئولية نبيل .. هنا كانت قد انتهت مهمة « جورج » كما انتهت من قبلها مهمة « حسن » .. وأخرج ستانلى قلما وورقة وكتب نبيل : « أقر أنا نبيل .. بأنى قد تعاقدت مع مستر « ستانلى » للعمل فى المجال الصحفى ، وذلك تحت الاختبار لمدة عام كامل ، وبمرتب شهرى قدره خمسون دولارا »

ووقع نبيل ، وودع الرجال ، وكان على موعد مع ستانلى فى اليوم التالى ..

من حسن الحظ ــ !!! ــ ان ستانلى كان يجيد العربية .. فى اليوم التالى سأله ستانلى :

ــ أنت نازل فين ؟! ...

وعندما عرف اسم الفندق ، أبدى امتعاضه ، ان الصحفى الذى يعمل معهم ، لابد أن يكون مظهره مناسبا لمكانة

الوكالة .. وانتقل نبيل ــ مبهورا ــ إلى فندق فاخر ــ وفى غرفة هذا الفندق الفاخر ، التى كانت معدة من قبل اعدادا كاملا ، جلس ستانلى إلى نبيل ..

ــ تعرف تصور ؟! ..

وارتبك نبيل ...

ــ ازاى تبقى صحفى ولا تعرفش تصور ؟!

وبدأ تدريبه على التصوير ، بدأ يدربه على تصوير الاشخاص ، ثم الأماكن ، ثم الأشياء .. كان التدريب يتم خطوة بعد خطوة ، وكان نبيل ينزلق خطوة بعد خطوة ، وكان موعد السفر يقترب ، والتدريب الشاق يأخذ أغلب ساعات اليوم ، وكيف يثبت الكاميرا ، وكيف يصور المستندات ، وكيف وكيف وكيف .. وكان نبيل يستوعب ، تحول ذهنه إلى جمرة متقدة .. ولكن .. كان ثمة سؤال وجهه نبيل إلى « ستانلى » :

ــ الأخبار ؟!

ــ مالها ؟!

ــ أبعثها فى برقيات والا فى جوابات ؟!

وخجل ستانلى ، كان نبيل ساذجا دون شك ، لم يكن يعرف أن البرقية من الممكن أن يقرأها أى من موظفى

البرقيات، وانها من الممكن أن تتسرب إلى الصحف وتصبح، قبل أن تصلة اليهم، بلا قيمة..

ـ يبقى أبعتها فى جوابات !!

ومرة أخرى يبرهن نبيل على سذاجته.. أن ما يحدث للبرقيات من الممكن أن يحدث للخطابات..

ـ طب العمل ايه ؟!

وإذا كان الخبر الصحفى يصبح سرا للجريدة أو الوكالة أو المجلة، فان للسرية وسائل سرية.. ان لها حبرا سريا عليه أن يتدرب على الكتابة به !!

وتحمس نبيل، وتدرب، ليلة بعد ليلة، ان كل شىء يجب أن يظل على الكتمان.. حتى إذا جاءت الليلة الأخيرة، تسلم نبيل كاميرا «زينيت» كما تسلم كيسا جلديا به جيب سرى وضع فيه معدات الحبر السرى.. و.. وقبل أن تمتد يده لمصافحة ستانلى جاءته المفاجأة..

لقد رفعوا أجره من خمسين دولارا فى الشهر، إلى مائة دولار كل شهر!

ولم يصدق نبيل أذنيه، ولكن.. كان عليه قبل أن يسافر، أن يفتح حسابا سريا فى أحد بنوك جنيف، وكان عليه أن يعطى لستانلى رقم الحساب السرى، ليضع له النقود فيه..

وكان آخر ما أخذه نبيل من ستانلى، هو العنوان الذى سيرسل عليه خطاباته.. وكان فى الدانمارك !

■ ■ ■

كانت هذه هى البداية، ولا أحد يدرى على وجه اليقين متى وضعت المخابرات المصرية يدها على أول الخيط، لا أحد يدرى فهذا ــ عند هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت ــ هو قمة السرية، غير أن الذى عرفه نبيل عن يقين أنه كان ساذجا، وانه لفرط سذاجته، تركوه ثلاثة عشر عاما كاملة، وهو يرسل تقارير توضع باستمرار تحت يده، تدسها عليه المخابرات العامة المصرية بأسلوب دقيق لا يمكن كشفه.

كان الأمر يتطور يوما بعد يوم، لم يعد المطلوب من نبيل أخبارا صحفية، بل تحول، بعد أن قبض الكثير من المال، وبعد أن ارتفع أجره إلى ١٥٠ دولارا فى الشهر، إلى منظمة لمحاربة الشيوعية..

ولم يعد المطلوب منه أخبار السكرتارية فقط، بل أصبح المطلوب منه أن يعرف علاقات الاعضاء بعضهم ببعض، كيف يتعاملون، وكيف يتصرفون وماذا يكتبون، و... و.. والتحق نبيل بكلية التجارة بجامعة بيروت حتى يسهل عليه السفر، وسافر إلى بيروت، وطار منها إلى اثينا، والتقى ستانلى الذى

سلمه إلى بيتر.. ودربه بيتر على قراءة « الميكروفيلم » وهو هذا الفيلم الذى لاتتعدى مساحته رأس دبوس، و يوضع تحت ورقة البريد أو فى ثنايا المظروف.. ثم طلب منه أن يتوسع، أن يجمع أخبارا عن الجيش، والحالة الاقتصادية.. ويسأل نبيل ويأتيه الرد بأن هذه المعلومات مطلوبة لمنظمة حلف الاطلنطى، ويسافر إلى بيروت، ومنها إلى اثينا، ويلتقى ببيتر الذى يسلمه إلى شخص آخر هو « تونى ».. وكان « تونى » مختلفاً، كان جداً متهجماً: « سيبك من المؤتمر الافريقى ماتبعتش عنه حاجة إلا إذا كانت مهمة جداً، عاوزين أخبار عن الجيش، عن العرب، عن اتجاهات الرأى العام »

وقبل أن يسأل نبيل، يقرر تونى أن مرتبه ارتفع مرة ثالثة إلى ٢٠٠ دولار فى الشهر..

ثلاث سنوات قضاها نبيل مع تونى، ثلاث سنوات كان يسافر فيها للدراسة أو للسياحة أو مع المؤتمر الافريقى الاسيوى ليلتقى بتونى.. تماما، كما حدث فى رحلته إلى الهند عندما التقى به تونى فى نيودلهى ليعطيه المزيد من المعلومات وكان هذا فى عام ١٩٧٠، ثم رحلته فى عام ١٩٧٢، عندما خطا خطوته الأخيرة، وأصبح جاسوسا مدربا على التقاط الرسائل اللاسلكية وارسالها فى نفس الوقت.. وتعلم نبيل الشفرة، وكان كتاب الشفرة احدى روايات « أجاثا كريستى »...

كان نبيل ينجح فى علاقته بهم، وينجح فى دراسته، ويفشل فى حياته، خطوة بعد خطوة، وبلغ رقم ما تقاضاه منهم ٣٥ ألف دولار، كان خاطبا لفتاة تركها، وأصبح خاطبا لفتاة أخرى فشلت علاقته بها، وانهالت عليه المكافآت.. كانت المعلومات المدسوسة عليه دقيقة إلى حد أن خدعت مخابرات اسرائيل.. وكان ـ فى أحد لقاءاته مع تونى ـ يتحدث عن المنظمة التى يعمل لحسابها عندما سأله « تونى » بجفاء:

ـ منظمة إيه ؟!

وقال نبيل:

ـ منظمة حلف الاطلنطى!

فرد عليه ستانلى:

ـ نبيل.. أنت عارف انك بتشتغل مع اسرائيل، اللف والدوران مالوش لازمه!

و... لم ينطق نبيل!

■ ■ ■

فى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٧٣ قبض على نبيل، واعترف.. صرح مسئول فى المخابرات المصرية: «بأنه كان تحت السيطرة الكاملة لمدة عشر سنوات!»

وعندما علمت خطيبته الثانية بالأمر قالت :

ـــ لو كانت دى قضية عادية ، ماكانش ممكن أسيبه لكن... لكن دى خيانة ..

ثم نزعت الدبلة ..

الصعود إلى الهاوية

« هذه قصة هزتنى لشهور طويلة ، وأقضتنى ليالى عديدة ، كل ما أبغى قوله عنها ، أنها لا تحوى شيئاً من الحقيقة ، كما أنها لا تحوى شيئاً من الخيال ! .. »

الألم والعذاب واللون الأسود يلون كل شىء فى الدنيا ، طار « رمزى » دون سابق أنذار .. يوم تقدم إلى خطبتها أحست وكأن القدر يعطيها كل ما تريد ، شباب ومال وجمال ، هكذا كانت تردد أمها دائماً عنه .. رآها ذات يوم لاتدرى أين ، لكنه تذكر يوم رأته لأول مرة ، كان أنيقاً بلا أسفاف ، وكان رقيقاً رقة رجل يعرف كيف يعامل امرأة طلبها للرقص فلبت وقد كست وجهها حمرة سعادة بلا حدود .. على أنغام الموسيقى كانت ترقص معه فوق أرض صنعت من سحاب ، زرقة السماء فى عينيه ولون الذهب فى خصلة شعره النافرة إلى جبهة توحى



بذكاء وقاد.. قبل أن تحتويها ذراعاه كانت تعرف من هو رمزى السيد، رجل أعمال فى الثلاثين من العمر، يقضى نصف حياته متنقلاً بين بلدان العالم، والنصف الثانى فى ادارة مكتبه الانيق للاستيراد والتصدير، طلب منها موعدا فلم تستطع الرفض، أعطته رقم تليفون البيت، وأعطاها كارتا به أربعة أرقام، وكتب لها الرقم الخامس السرى، حيث تستطيع أن تجده دائماً.. وليلتها، ليلتها أحتضنت وسادتها وغابت مع الأحلام..

عندما تقدم لخطبتها صاحت فيها أمها:

ــ وده عثرتى عليه فين يا عبلة ؟!

عبلة كامل..

هذا هو أسمها الذى اذا تردد فى كلية الآداب أقترن بالنبوغ والعبقرية..

عبلة كامل...

لا تدرى من أين جاءها هذا الذى يتحدثون عنه من اتقاد الذهن وحضور البديهة. طالما جلست الى نفسها وتساءلت، من أين ؟... والى أين ؟.. سر الاسرار أم قدس الاقداس أم حرم الشيطان كان يسكن فى عقلها يوم وضعت الدبله فى أصبعها أبتسمت سلوى، صديقة العمر ورفيقة الصبا ومدارج الطفولة.. وقالت:

ــ ربنا يسعدك ياعبله.. ربنا يسعدك!

كان فى الصوت رنة حسد أم كانت نغمة أشفاق هى! لا تدرى، ولم تكن تريد أن تدرى.. كل ما تعرفه أنها كانت تنتظر دقة التليفون وصوته يدعوها للقاء، كانت ترتمى فى أحضانه فتستعيض بشفتيه عن الدنيا وما فيها، وبجواره، فى السيارة حيث الراديو والريكورد والبيك أب والتكييف صيفاً وشتاءً، عرفت كيف تستمع إلى الاغانى لاول مرة، تذوقت طعم «أم كلثوم» و«عبد الوهاب» ورأت وجه الدنيا الجميل فى ابتسامته.. وتجري الايام، تجرى تجرى تجرى، وكانت تجرى معها دون أن تلهث، حتى كان هذا اليوم.. حتى كان ؟!

راحا يضحكان فى السيارة من أعماق قلبيها.. كان يردد أسماء المحلات فى القاهرة محلا محلا، كانا يريدان شيئاً جديداً فإذا بهما وطئا كل مكان وذهبا الى كل مكان.. أنحرفت السيارة وراحت تجرى على كورنيش النيل فلم تسأله الى أين، وقفت أمام عمارته وكانت تعرف أنه هنا يسكن، نظرت اليه فأطلت عليها أبتسامته كالحلم.. فتحت باب السيارة وراحت تتقافز بجواره الى حيث المصعد، وفى المصعد أحتواها هذا الدفء الذى يسرى فى العظام فينحدر العمر بما فيه.. وعندما خطت خطوتها الاولى الى داخل المسكن الانيق، دار رأسها..

دار.. دار، دار قبل الموسيقى والكأس وأحلى رقصات العمر منذ المهد حتى اللحد..

نظرت اليه قبل أن يغادر البيت..

ـ مالك ياعبله ؟

ـ رمزى.. مش عارفه، و بعدين ؟ !

ـ فيه أيه ياعبله ؟ !

ـ رمزى أحضنى !

وضمها اليه، أحتواها بين ذراعيه، لم تكن خائفة.. أبدا هى لم تخف مما حدث.. فى أذنها أنسالت كلماته كالنسيم العطر:

ـ هو الجواز ورقة ياعبله.. مأحنا متجوزين ؟ !

كانت تعلم يقيناً هذا، كانت تعلم أنه على حق وكانت تؤمن بما يقول ولم تكن تشك لحظة، لحظة واحدة فيه كانت هى اختياره، كما كان هو أختيارها فمن أين يأتى الغدر أو الخيانة..

وفى السيارة كانت الدنيا قد عادت كما كانت، ملونة نعم، لكن لألوانها طعم الحقيقة، ساد بينهما الصمت فلا كلمة، ضغط على زر فانبعثت الموسيقى تسرى فى جو السيارة الدافىء.. أحست بنظراته تقبل وجنتها فارتجفت.. همس:

ـ مالك ياعبلة ؟ !

نظرت اليه وتداخلت فى نفسها وأسندت رأسها الى المقعد وقالت:

ـ عارف يارمزى ساعة ماركبت العربية حسيت بأيه !

وأنتظر أن يسمع دون أن يسأل:

ـ حسيت إنى مراتك !

وضحك رمزى السيد، وضحك وهو يضغط يدها فى كفه:

ـ ما انتى مراتى يا عبلة.. انتى مراتى !

■ ■ ■

قبل أن تضغط جرس الباب جاءها صراخها من الداخل:

ـ ياشيخة ربنا ياخدك و يريحنى منك !

ـ وما ياخدكش أنت ليه يا كامل ؟

ـ ياوليه أهدى.. اتقى الله فى عيشتك ؟

ـ وهيه دى عيشة يابو التسعين ملطوش !

ـ يا أم عبله أعقلى وخلى الليلة تعدى على خير!

ـ ومن أمتى شفت الخير معاك ياكامل ؟ !

ـ أهو أنا كده.. اذا كان عاجبك !

ـ لامش عاجبنى !

ـ أهو عندك الباب يفوت جمل !

وجاءتها ضحكة أمها مجلجلة، رنانة، خالية، مستفزة..

ــ طب شد حيلك لو كنت راجل!

ــ كده يا أم عبلة.. كده.. طب روحى وأنتى..

وضغطت عبله على جرس الباب بكل ما تملك من قوة.. أنقطع يمين الطلاق فلم يتم وفتح أبوها لها الباب فأطلت عليها بتحية المساء. كانت سعيدة. وكانت تعلم أن هذا «الموال» موسيقى مزعجة تعزف فى البيت ليل نهار.. تحبها نعم، وكيف لايحب الانسان أباه وأمه، مختلفان نعم، ومنذ أن وعت وكل منهما فى واد غير وادى الأخر.. حسم وجودها الامر وكان المشهد كما توقعت، أمها تجلس وفى يدها أوراق اللعب وهى «تفتح الكوتشينة» لتستشف المستقبل وهو بجلبابه وطاقيته وسجادة الصلاة يفردها هرباً من المعركة.. مكبرا للصلاة متمتما بأيات من القرأن..

ماالذى أصابها فى تلك الليلة؟!.. لاتدرى غير أنها أرادت أن تقول.. أرادت أن تحدث أحدا، أن تخبر أمها بالذات بما وقع ليس. ليس عدم ثقة فى رمزى ولكن رغبة فى المشاركة بالفرحة.

نعم.. كانت فرحة. كانت كعروس ليلة زفافها تريد أن تشهد العالم كله أن رجلها أصبح لها وأنها أصبحت له. اقتربت من أمها وقبلتها فلم تنطق الام.. همست:

ــ ماما..

زامت الام وقد أستغرقتها الاوراق والأرقام والصور

ــ ماما..

التفتت فجأة وصرخت:

ــ عاوزة أيه من زفته.. أبعدى عنى وكفاية عمايل أبوكى فيه!

ولقد كان شيئا عاديا هذا الذى حدث، شىء تعودته، وكانت تحكى لرمزى عنه، وأحيانا كانت تضحك منه.. غير أنها الليلة.. الليلة بالذات، شعرت وكأن أمها تصفعها ليلة الفرح!

ــ ماما.. أنا عاوزة أتكلم معاكى!

ــ سيبينى فى حالى... عندك أبوكى روحى له!

ونهضت مبتعدة، جرح هو أم قبح كان مخزونا فى القلب.. انهى أبوها صلاته مبسملا ومحوقلا فانزلقت لتركع بجواره على الارض هامسة:

ــ بابا..

ــ سيبينى فى اللى أنا فيه ياعبله.. كفايانى عمايل أمك وقرفها!

وعلى الفور جاءته من حيث كانت أمها قذيفة، رد عليها بأخرى.. واشتعل البيت بالنار وهى واقفة ترقب... نادت

على الأم فلم ترد ، نادت على الاب فلم يرد ، صرخت فيها فازداد صرخها . ماما . بابا . ماما . بابا . ولكن كانت الحرب بينهما تدمر فيها كل شيء ، كل شيء ..

في اليوم التالي أدارت قرص التليفون :

ــ رمزى بك من فضلك !

ــ رمزى بك مسافر يامدموازيل !

نزل الخبر على رأسها كالمطرقة ، عنيفا ، رهيبا ، مدمرا ، وجاءها الصوت من الطرف الأخر :

ــ الو .. الو .. الو ..

ــ سافر ؟ !.. سافر أمتى ؟ !..

ــ سافر أوربا !

وعندما وضعت السماعة فى مكانها ، لم تكن الدنيا تدور ، أبدا .. ولم تصعد الدموع الى عينيها ، أبدا . فقط . طوفان رهيب من الكراهية راح يتدفق من أعماقها . كيف . كيف . كيف . ولاجواب

وهكذا جاءتها الكراهية بما لم تحلم به أبدا .

وهكذا فى لحظة واحدة انتقلت من عالم الى عالم .. ومن دنيا الى دنيا ..

وهكذا أزداد تفوقها وازداد نبوغها وازداد أعجاب الناس بها ، كما ازداد عدد الذين أحبوها ! !

فى فناء الجامعة جذبتها سلوى من يدها مبتعدة عن الشلة الضاحكة :

ــ عبلة .. انتى اتجننتى ؟ !

ــ ليه بس يا سلوى ؟ !

ــ ايه اللى أنتى بتعمليه ده ؟ !

ولم تكن ترى فيا كانت تفعلة جريمة ثلاثة من زملائها وقعوا فى غرامها فما ذنبها .. ومنذ وبعض عام كان رمزى قد أختفى ، لم تتصل به ولم تفكر ولم تحاول غير انه لم يتصل بها .. خلعت الدبلة ولم تجد من تسر إليه بما حدث سوى سلوى .. ارتاعت سلوى وبكت وقضت أياما حزينة .. غير أن عبله لم تحزن أبدا ، ولم تبك أبدا ، بل انطلقت لتدمر كل شيء ، كل شيء . ولم يكن ماحدث بين « العيال » فى الكلية يعنى عبله أو يشغلها .. كان ما يعنيها وما يشغلها حقا هو « البروفيسور بيير » ..

كان أستاذا للغة الفرنسية لكنه كان يتقن العربية .. كان شابا وكان وسيما ، لكنه كان عالما بكل ماتحمل الكلمة من معنى .. كان صديقا للجميع غير أنه كان صديقا لعبله بنوع خاص .. ذات يوم قال لها :

ــ انت زى الصاروخ ياعبله .. بس عيبك أنك مش موجهه !

فى علاقته بها كان نوع من الحذر لم تعرف سببه .. ردت على صياح سلوى وغضبها قائلة :

ــ أيه اللى مخوفك من بيير، ده عمره ماغازلنى، وعمره ما قال لى كلمة خارجة، وعمره ما أتصرف معايا تصرف غير لائق، وعمره ما ...

ــ البروفيسور بيير بيحبك ياعبله !

ــ لا ! ..

قالتها بجزم شديد، قالتها بثقة شديدة، ليس حبا هذا الذى يكنه لها بيير، أبدًا ليس حبا، أنه شىء أخر، شىء غامض لاتدريه . قالت لسلوى هذا كما قالته لنفسها، لم تعد تفكر منذ ذلك اليوم أن تتحدث الى أمها أو أبيها ... ولم تعد تفكر منذ أن أخبرت سلوى بما فعله رمزى أن تطلعها على شىء، فما الذى كان هناك، فى أعماقها ؟ !

ــ بروفسور بيير .. أنا عاوزه أسألك سؤال .. لكن ؟ !

ــ أنا هنا علشان أجاوب على أسئلتك ياعبله !

ــ أنت بتحبنى ؟ !

ــ لا

بثقة قالها .. بهدوء نطق بها .. فتركته ومضت وهى واثقة من أنه كان صادقا .. شىء غريب هذا الذى كان يربطها به، شىء غريب ومخيف ومروع، غير أنه كان مثل القدر، يسعى اليها حثيثا، دون أن تستطيع دفعه .

ــ الفلوس مش كل حاجة ياعبله .. أنتى مجنونة !

ــ لو كان بابا غنى ماكنش رمزى عمل كده !

ــ رمزى عمل اللى عمله لأنه ندل !

ــ رمزى عمل اللى عمله ياسلوى لانى فقيرة .. لأن معنديش فلوس ..

انت مصدقة نفسك .

ــ أنا مقتنعة باللى أنا بقوله ! ..

و يوم ظهرت نتيجة الليسانس كانت ناجحة، وكان هذا اليوم هو موعد زواج سلوى من عزت !

ــ تفتكرى لو ان باباكى مكانش له المركز ده، وما كنشى عنده الفلوس دى، كان عزت خطبك ؟ !

ــ عبلة .. أنتى أتجننتى .. عزت بيحبنى، وأنا بحبه !

ــ تفتكرى لو ماكانشى باباكى غنى وفى المركز ده كان عزت وقع فى غرامك !

ــ عبله .. أخص عليكى !

ــ ماتزعليش منى ياسلوى .. انت عارفة .. أنا صريحة، وهى دى الحقيقة !

وقبل هذا اليوم بأسابيع طو يلة، كانت تحيا أزمة الفستان ..

ــ ماما .. أنا لازم أحضر فرح سلوى، وأنا ماعنديش فستان !

ـ وأنا أجيب لك منين .. عندك أبوكى !

وذهبت إلى أبيها ..

ـ بابا ..

لكنها لم تكمل .. فلقد أنفجر فيها هادرا شاكيا أمها فضت .. و يومها لمح البروفسور بيير فى عينيها ذلك الحزن الذى ينبىء عن عجز .. قال :

ـ مالك ياعبله ؟ !

ـ زعلانه

ـ ليه ؟ !

ـ علشان فستان ! !

كان بيير، رغم كل شىء، قد أصبح صديقاً لها .. كانت تجلس اليه بالساعات لتناقشة و يناقشها ، لتحكى .. كان بيير بارعاً فى جر قدمها لأن تقول كل شىء .. ذات يوم سألته :

ـ برفسور بيير .. أنت بقيت عارف عنى كل حاجه !

وابتسم بيير ولم يرد .. غير انه فى ذلك اليوم الذى حدثته فيه عن الفستان قال :

ـ أنا حاجيب لك فستان هدية ! ..

ـ مش حاأقبلها ؟ !

قالتها فى تحدى الواثق من نفسه !

ـ من عند بيير كاردان فى باريس !

برضة مش حا أقبلها ..

لكنه .. قبل الزفاف بيومين ، همس فى أذنها قائلا :

ـ عبله .. الفستان وصل !

وكانت هذه هى المرة الاولى التى تهزم فيها عبله كامل ..

كانت هذه هى المرة الاولى !

■ ■ ■

عندما خطت عبله الى بيت البروفسور بيير، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بالليل .. تركت سلوى الجامعة وضحكات الناجحين وتهانى العيال للعيال وأصطحبته لترى الفستان .. فى التاكسى قالت :

ـ أنا حاعتبره سلف ودين لحد ماأشتغل !

فابتسم بيير ولم يرد ..

لكنها عندما فتحت الصندوق ورأت الفستان، وعندما شهقت للشىء المبهر الذى أنفرد بين يديها .. كان لابتسامة بيير طعم آخر .. غريب، مثير، غامض .. وقبل أن تخرج من شفتيها كلمة شكر، كان يقدم لها طاقا كاملا للماكياج .. حاولت أن تنطق فلم تستطيع ، حاولت أن تشكره فأبت الكلمات ، التفتت اليه وسألت :

ـ بروفسور بيير .. أنت بتجنى ؟ !

ولم يرد هذه المرة ، كل مافعله أنه ضحك ضحكة خفيفة ..

ثم غادر الغرفة لترتدى الفستان ! !

كان حفل الزفاف مقصورا على الاصدقاء والصديقات والاقارب.. وعندما دق جرس الفيلا الأنيقة وفتح الباب، ألتوت كل الرءوس نحو الضيف القادم.. وكانت عبلة تعلم علم اليقين ما الذى أصاب الجميع.. الجميع.. كانت فى هذا اليوم جميلة.. لا.. لم تكن جميلة.. كانت شيئا خارقا للعادة.. وعندما وقفت أمام المرآة قبل أن تغادر بيت البروفسور بيير كان هذا يقف وراءها، وكان يقول:

ــ أنا خايف على العروسة منك!

لكنها ــ أبدا ــ لم تكن تفكر فى هذا.. كانت تنظر الى نفسها فى أنبهار... ها هو يقينها يتحقق، ها هى تبدو مثل ألهة من ألهات الاغريق فى فستان باهر، ولولا المال، لما وصلت الى هذا، ولما أصبحت هكذا، ولما التوت كل الاعناق فى فيلا محمد بك أسماعيل والد سلوى ورئيس مجلس ادارة أحدى الشركات الكبرى، لتشاهد هذه الفتاة التى كانت ترفل فى ثوب لم تره عين.

وعندما ضمتها سلوى الى صدرها، كانت عيناها جاحظتين وهى تشاهد الفستان هامسة:

ــ جبتى الفستان ده منين يابت؟!

وهمست عبله:

ــ دى هديه البروفسور بييرفى جوازك!

لحظتها.. لحظتها بالذات.. تقدم منها صبرى ضاحكا:

ــ سلوى.. مش.. تقدمينى.. أنا صبرى.. صبرى عبد المنعم.. أبن خالة سلوى!

ولم تكن عبلة كامل، تعرف فى ذلك الوقت، ان القدر قد ربطها بصبرى الى الابد..

ولم تكن تعلم.. أن الخيوط كانت ــ الأن ــ تنسج غير بعيدة عنها، وفى قلب القاهرة..

كان من عادة البروفسور بيير ــ اذا ماشرع فى العمل ليلا ــ أن يغلق الابواب والنوافذ وأن يسدل الستار تماما..

وعندما دلف الى غرفة مكتبه، وأغلق الباب، وضغط على هذا الزر الخفى فى مكتبة الحائط.. وعندما تحرك ذلك الجزء الصغير فى قلب المكتبة ليكشف عن معداته من الحبر السرى وأدوات التصوير وجهاز الارسال، كان لايزال يفكر فيما قالته عبله كامل..

امتدت يده فأخرجت الحبر السرى وأدوات الكتابة..

وشرع فى الاعداد لكتابة الخطاب، فتح كتاب الشفرة وراح يتنقى الكلمات.. لكنه توقف ــ على غير عادته.

ــ وسرح بخياله..

واذا كان من الصعب على من كان مثله أن ينفعل فى مناقشة مع انسان وضع عينه عليه، فانه فى تلك الليلة لم

يستطيع .. كان اعجابه بعبله يزداد يوما بعد يوم ، ثمة شيء فى أعماقها يدفعها الى الكراهية والاحتقار، شيء لم يكن يدريه وان كان يعلم يقينا أنه موجود .. وكان اذا ما أنفعل تحدث بالفرنسية حتى تسعفة لغته ، ولقد ضحكت عبله ، وخاضت معه فى المناقشة بالفرنسية التى كانت تجيدها، لترسم له الطريق واضحاً .

ـ ماذا تريد أن تقول يابروفسور؟ !

ـ اريد أن أقول ياصديقتى أنك تظنين أشياء لاظل لها من الحقيقة !

ـ فما الذى تريد أن تعرفه ؟ !

ـ ما الذى تريدينه أنت !

ـ اننى أبحث عن القوة !

ـ ان القوة لن تجديها الا فى العلم ، ففى العلم تكمن القوة الحقيقية ! !

ـ وفى المال ياصديقى تكمن القوة الفعلية !

ـ أن الحصول على المال سهل يسير، فلم اذن تجهدين نفسك فى العلم ؟ !

ـ لانى أريد أن أحصل على أكبر قدر من المال ، ولن يتأتى هذا الا بالعلم !

ـ الى هذا الحد ..

لكنها قاطعته فى صراحة :

ـ الى الحد .. والى كل واحد .. لقد هزمت مرة ، ولن أسمح بالهزيمة مرة أخرى !

ـ أتظنين أن سلوى أسعد منك حالا ؟ !

ـ يكفيها أنها ستتزوج الليلة دبلوماسيا ، وأنها ستسافر الى جنيف بعد فى الصباح الباكر، وأنها ستشاهد أوربا . وستتاح لها الفرصة لان تعرف وترى وتتعلم !

ـ هل ترغبين فى السفر!

قالت بالعربية وهى تضحك :

ـ أيدى على كتفك !

ولم يجد بيير ما يكتبه بالشفرة ـ سوى هذا الحوار.. ضبط الاوراق ، وجهز نفسه ، واضاء أباجوزة المكتب وشرع فى العمل بهدوء ودأب !

لكنه قبل أن يخط كلمة واحدة نظر فى الساعة .. وكانت أمامه فسحة كافية من الوقت .

■ ■ ■

ضحكت سلوى وهى تهمس فى أذن عبله :

ـ صبرى حايتجنن عليكى !

ـ وأنا مالى!

كانت عبله ـ الليلة ـ قد وصلت الى ذروة الاحساس بالثقة .. وها هو كل شيء الأن بين يديها ، تدعمت ثقتها

بنفسها ساعة أن ظهرت النتيجة، أنها الان تستطيع أن تقول أنها جاهزة لكبح جماح العلم.. كما أنها الليلة تستطيع أن تقول أنها قادرة على هزيمة رمزى ! !

ـ رمزى ؟ !

ماالذى ذكرها به ؟ !

يابت ياعبيطة، صبرى ده مدير عام، وعمره ٣٢ سنة، ومهندس، وعبقرى، وشغله مهم جدا !

ـ وأنا مالى !

ـ ياعبيطة ... دى البنات حاتموت عليه !

ـ من عبطهم !

ـ وهو حايموت عليكى !

ـ من عبطه !

ـ ده وارث !

ـ يبل فلوسه و يشرب ميتها !

ـ عينه مابتنزلش عنك !

ـ يجيب لها سم و ينزلها !

ـ كلمنى عنك من شوية ..

وابتسمت عبله.. كانت تعرف الان أنها قادرة.. كل الاشياء القديمة الأن أصبحت صغيرة.. كل الآلام أصبحت وكأنها لم تكن... حتى عندما سأل أبوها عنها بالتليفون، ردت

علية فى لامبالاة.. كان قلقا لظهور النتيجة، فسخرت من قلقه وهى تزف اليه نبأ النجاح.. سألها لم لم تعد الى البيت طوال اليوم، فتدفق من أعماقها حنين غامض اليه.. وقتها، أحست فقط أنها تحبه.. تحبه لانه مسكين !

■ ■ ■

أمام فندق شبرد القائم على شاطىء النيل بالقاهرة، توقفت سيارة تاكسى، وهبط منها البروفسور بيير.. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بدقيقتين، دلف الى داخل الفندق، فاحتواه هواء الهول الدافىء... انثنى الى اليمين وسار خطوات حتى وصل الى الهول، تطلع الى الجالسين والجالسات وكان المكان شبه خال.. بنظرة سريعة خبيرة أحتوى المكان كله فاطمأن وأستدار عائدا من حيث أتى.. كانت وجهته تلك المكتبة الصغيرة القائمة على يسار المدخل.. تطلع الى بعض الكتب حتى رأه قادما، لشهور طويلة وهو يلتقى به لكنه ـ ابدا ـ لم ير وجهه كماينبغى.. استدار ووقف أمام الحامل الدائرى الذى يحمل مجموعه «الكارت بوستال»، اقترب من الحامل وراح يتطلع الى الصور فى امعان.. امتدت يده الى جيب معطفه الداخلى وأخرج الخطاب وفى لمح البصر كان قد دسه بين الكروت.. وكان «هو» يقف فى الناحية الأخرى، فدفع بيير بالحامل فدار، الخطاب ليقف عند الناحية الاخرى.

وأمتدت يد لتأخذ الخطاب وتدسه فى الجيب الداخلى للمعطف الرمادى .. ومضى الرجل .. وظل بيير للحظات حتى انتقى كارتا ، دفع ثمنه ، وخط عليه بضعة أسطر ، وكتب العنوان وابتاع من عاملة المكتبة طابع بريد ، ثم ترك لها الكارت ، كما تعود أن يفعل . بعد أربعة أيام بالضبط ، كان هناك أجتماع صغير عقد فى « الموساد » المخابرات العامة الاسرائيلية وكان « أيزاك » ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى يحمل هذا الاسم بجانب اسمة الحقيقى ، يستمع الى كل المعلومات التى وصلت اليهم من فتاه تدعى «عبله كامل » .. وكان المطلوب شيئا هينا بسيطا ، زيارة للسوربون مدتها أسبوعان ، وتذكرة طائرة تمر بجنيف .

فغرت عبله فاها دهشة ، أبتسمت ، كادت تصفق مرحا ...

ـ بروفسور بيير .. أنت بتتكلم جد ؟ !

ـ تقدرى تلقى التذاكر والمواعيد فى مكتب الملحق الثقافى !

فى ذلك اليوم بلغ أنفعال عبله اقصاة .. فالت على وجنته وقبلته .. كانت الجامعة خاليه من الطلبة والاساتذه .. لكنها غادرت مكتبه مهرولة ، وما أن غادرت سور الجامعة العتيد ، وراحت تبحث بعينيها عن تاكسى وهى تحسب ما فى حقيبتها من مال .. حتى وجدت صبرى أمامها ..

دون تفكير .. فتحت باب السيارة ، وصاحت فى مرح :

ـ صبرى .. اطلع بى على الزمالك .. قوام ، ماقداميش غير ساعة الاربع !

وكان المهندس صبرى عبد المنعم ، فى غاية السعادة ، وهو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة فى طريقه الى الزمالك ، وكانت عبلة بجواره !

يحبها ؟ !

نعم يحبها !

سؤال وجواب ولاشىء أخر سوى قدر غامض يجذب اليها القلب والنفس والوجدان جميعا . كان عاتيا فلم يخفق قلبه لفتاه أبدا .. الحب كلمة طالما سخر منها لكنه الأن غارق فيها لشوشته ، أسمها عبله كامل وهاهى تركب بجواره وليس فيها من الجمال الصارخ شىء غير أن فى عينيها نظرة أمرة ، عندما طاردها لم تمانع وعندما حاول اقتحامها صدته قوى لاتعرف اللين أو الهزيمة .. فى البداية كان الأمر عنادا ثم تحول الى شىء أخر لايدريه فى نفسه ، ضحك منه محمود صديقه وقال أن هزيمته أمام الجنس الآخر تحققت أخيرا ، فهل يرضخ .. هل يعرض عليها الزواج ؟ !

التفت اليها وهو يقود السيارة عبر شارع هادئ ظليل من شوارع الزمالك :

_ عبله ... تتجوزينى ؟ !

_ ليه ؟ !

قالتها ببساطة من سمع من أنسان تحية الصباح ، ارتجف من رأسه حتى أخمص قدميه ووقفت السيارة أمام السفارة فغادرتها عبله تقفز كالعصفور:

حاتستنانى ؟ !

_ أكيد !

مضت واختفت وأشعل سيجارة وأستغرق فى التفكير..

رفضته ..لا. لم ترفضه. بل رفضته. بل هى لم ترفضه .. كالبندول كان يرتجف هنا وهناك ، لايدرى كم غابت من الوقت لكنها عادت وكانت فى قمة السعادة.

قبل السفر بيوم كانا يجلسان معا فى أحد الكازينوهات المتناثرة على شاطىء النيل ، كان الغروب يلون الدنيا بشفق رقيق ، وكان هو يحكى عن نفسه ، وكانت هى لاتحكى شيئا.. حتى اذا حان موعد الانصراف همس:

_ عبله .. أنا أحبك !

_ تبقى عبيط !

_ ياعبله أنا أحبك فعلا ... باحبك وعاوز أتجوزك ومش قادر أعيش من غيرك !

وجاءته الاجابه ضحكة ساخرة رقيقة:

لا .. حاتقدر تعيش من غيرى !

وفى اليوم التالى كان على موعد معها لكى يوصلها الى المطار.. وفى الصباح اعتذر بالتليفون عن عمله.. وظل يعد الدقائق حتى حان الموعد. وعندما دق جرس التليفون فى الطرف الأخر رفعت السماعة وجاءته صوت أمها:

_ مين اللى عاوزها !

_ أنا .. صبرى عبد المنعم.. ابن خالة سلوى

دى سافرت من ساعتين ياباش مهندس !

_ سافرت ؟ !

صرخها ولم يقلها.. صرخها بلوعة من أصيبت كرامته فى صميم الصميم ... فى ذلك اليوم ، أحس وكأن أحدا القى به من فوق قمة جبل ، فظل جسده يتدحرج ، حتى وصل الى هاوية بلا قرار!

■ ■ ■

أبتسم ايزاك وهو يرقب وجه البروفسور أرموند أستاذ اللغة الفرنسية بالسوربون.. كان أرموند كلما أنفعل تقلصت عضلات وجهة وتراقصت نظاراته أمام عينيه فبدا منظره مضحكا.. كان أيزاك ـ الأن ـ يعرف طريقه جيدا ، فراح يداعب البروفسور أرموند وهويلف ويدور حول الموضوع:

—مسيو ايزاك .. هل لك أن تخبرنى بما أتيت من أجله اليوم ؟!

—نحن عادة يا بروفسور لانأتى الا للخير!

قال أرموند وقد أزداد تلاعب نظارته فوق أنفه :

« استمع الى ياسيدى .. فى بادىء الامر، عندما جئتم الى لكى تهددونى بالتعامل مع النازى .. كنت أرتجف هلعا، لا لخوفى مما يمكن أن تفعلوه بى، ولالخوفى من تلامذتى اذا دقت من حول اسمى طبول معاداة السامية .. ولكن لانى بالفعل لم أتعاون مع النازى، لقد كنت أيامها شابا ممتلئا حماسا .. وكنت هنا فى السوربون غارقا لأذنى فى مصطلحات اللغة وأدبها .. واذا بكم تهددون وتتوعدون .. لا .. لا تقاطعنى بالله عليك فما عدت أحتمل ... ولقد رضخت لطباتكم وأغلب الظن أنى سوف أرضخ الى مالا نهاية .. غير أن مايضنينى حقا هو ذلك الأسلوب الذى تتبعونه معى .. لماذا اللف والدوران ؟! لم لا تقول ماعندك وتريحنى من العذاب ؟!

—عبله كامل !!

نطق ايزاك الاسم فساد الصمت وسيطر على الغرفة العتيقة فى المبنى العتيق .. ترددت أنفاس البروفسور أرموند بصوت مسموع وبدا أنه لايسمع بهذا الاسم من قبل ..

—من هى عبله كامل ؟!

—فتاة مصرية حصلت على زيارة للسوربون لمدة أسبوعين!

—وماذا تريد لها ؟!

—أن تمنح بعثة دراسية لمدة اربع سنوات!

هز البروفسور أرموند رأسه موافقا .. بدا وكأنه قد فقد الحيلة ولم يعد قادرا على المقاومة ... هؤلاء الاسرائيليون الذين يعيشون فى الارض تحكما وجبروتا. الذين يملكون من القول مالا يستطيع مقاومته ليس غريبا أن يطلبوا شيئا لفتاه مصرية لكن الغريب هو تلك الابتسامة المطمئنة التى ترتسم على شفتى أيزاك .. مضى الاسرائيلى مختفيا وتركه وحده، أحس بالحاجة الى هواء منعش فجمع أوراقه وغادر غرفته وكان فى طريقه الى السينا .. هناك، على شاطىء النهر، يستطيع أن يجلس، وأن يفكر، وأن يبث مافى صدره الى مياهه الجارية!

■ ■ ■

هبطت عبلة مطار جنيف وقلبها يرقص طربا .. ها هى أوربا أخيرا. تلك القمة التى طالما أودت مخيلتها من خلال الكتب والسطور وكما كان الحلم كان الواقع، كل شىء كان يجرى فى مجراه دون عقبات. ارتمت بين ذراعى سلوى ودمعت عيناها، صافحت عزت بمرارة لم تعهدها فى نفسها من قبل، كانا فى انتظارها وكانت تعلم أنهما سيكونان هناك دائما ..

ــ سلوى .. لو قلت لك أنك وحشينى تصدقينى ؟ !

ــ ولو قلت لك انى عيانه بيكى تصدقينى.

وضحك عزت وهو يقود السيارة التى تحمل أرقاما دبلوماسية، الشوارع والبيوت والنظافة والنظام وكأن الدنيا تحولت إلى الجنة ثرثر عزت وكان يبدو سعيداً وأعلن غيرته فلا حديث لسلوى الا عن عبلة، ولا خناقة الا حول عبلة .. حتى صاحت سلوى :

ــ لكن قولى لى يابت أنتى .. ازاى جيبتى الزيارة دى للسوربون

ــ البروفسور بيير !

ــ أنا قلت كده برضة !

وعندما أختلت كل منها بالاخرى بعد الغداء أمطرتها سلوى بالاسئلة .. صبرى، ماذا فعل معها وماذا فعلت معه .. انزعجت سلوى فابن خالتها لايستحق من عبلة ماتفعله به ..

ــ أنا قلت له ياسلوى .. من الاول قلت له !

ــ طب وليه ماتتجوزوش ؟ !

وأطلت من عينى عبله نظرة سالت كالدموع وأمتدت يد سلوى لتربت على يد عبلة :

ــ قالت عبلة وقد تحجرت النظرة فى عينيها :

ــ أنا مش عاوزه حد يفهم حاجة، ومش عاوزه حد يمن على بحاجة !

ورغم هذا كان كل شىء يبدو كالحلم، الدنيا والجبال والثلوج والشوارع والنظافة والناس .. هنا يجب أن يعيش الأنسان، هنا يصبح الشرف شرفا الكلمة كلمة والحب حبا، هنا .. هنا. هنا رأت «رمزى» وكأن الارض أنشق لتخرجه كالمارد من قمقم كان حبيسا به.

دق قلبها. دق ودق. كانوا فى ملهى ليلى، وكانت سلوى تراقص عزت عندما وقعت عيناها عليه، رمزى، رمزى بلحمه ودمه .. يا للسنين عندما تطوى حياة الانسان بلا رحمة، يا للحب عندما يتحول الى غدر من نوع قاتل، ياللأيام تبقى فى الوجدان بعذابات بلا حدود .. وعندما التقت عيناها بعينيه، وعندما أطلت من عينيه تلك النظرة المرحة كادت تتهاوى ... وعندما وقف أمامها تثلجت أطرافها حتى التجمد. أنحنى عليها بابتسامته التى طالما سحرتها :

ــ عبلة .. والا أنا بحلم !

قالت وهى تمد له يدا كالجثة :

ــ أزيك يا رمزى !

▪ ▪ ▪

غير أن القوة ليست غريزة يولد بها الانسان، واذا ما أراد الواحد منا أن يكون قويا فعليه أن يضع أمام عينيه هدفا لا يحيد عنه. ثم، يصبح عليه أن يسحق ذاته ــ اذا ماأقتضى الامر

ـ لكى يحقق هذا الهدف ومنذ أن فعل رمزى مافعل كان هدفها هو القوة.. كانت تنظر الى الناس فى الشارع فترى فى عيونهم نظرات الشماته والكراهية لكنهم لايعرفون أنها أذلت، فيه كانت ترى كل الرجال، وأصبح الهدف ـ بالقوة وحدها ـ الانتصار على الرجل، واذا كانت الطبيعة قد جعلت من المرأة مخلوقا أضعف، فلم خلقها الله أمرأة ؟!.. مضت الليلة واذا بالمارد يهدد فى داخلها ساخرا بالماضى بالحب بكل الذى كان.... ثلاثة أيام فى جنيف كان رمزى يطاردها فيها ليل نهار.. ذات مرة كانت تجلس بجواره فى السيارة عندما صرخ :

طب انت عاوزه أيه ؟!

ـ مش عاوزه حاجة !

ـ أنا أعتذرت لك عن اللى كان.. أنا عاوز أصلح غلطتى

ـ مين قال لك أنك غلطت يا رمزى ؟!

ـ عبلة .. اسمعى لما أقول لك ..

قاطعته بصوت هادىء واثق :

ـ اسمع أنت يا رمزى، اللى أنت عملته ماعملتوش غصب عنى، أنا مش قاصر، واللى حصل حصل برضاى.. أنت ليه بتعذب نفسك !

ـ أنا عاوز أتجوزك !

وأنا بعتذر!

ـ أنت خطيبتى !

ـ دبلتك أهيه !

لحظتها فقط، تذكرت أنها خلعت الدبلة حقا لكنها كانت تحتفظ بها أينما ذهبت، أينما كانت، حتى فى نومها كانت تحتفظ بالدبله.. لاتدرى كيف كان يحدث هذا لكنها الأن وعته وكأنها ما كانت تفعله الاحلام ووهما.. مدت له يدها بالدبلة فلم يمد يده ليأخذها. وفى بساطة وضعتها فى جيبه وكانت تشعر أنها تسقط فى هذا الجيب.. قلبها ذاته !

سحقا للماضى كله، سحقا لكل شيء فما بعد القلب شيء، سوى العذاب دفينا حتى النخاع.. ها هى القوة تحقق انتصاراتها بانهيار رمزى.. أين هذا الذى يتوسل من هذا الذى تركها بلا كلمة اعتذار. وفى مصر الان يربض صبرى كالكلب فى انتظار أن يلعق يدها باشارة، أو بنظرة ولسوف تحطم كل شيء كما حطموها، الاب والأم والحبيب والناس جميعا.. ليسقط الضياع والضعف، ولتصعد سلمها إلى الطائرة المقلعة بها إلى باريس، ولتمتع بدموع سلوى ونظرات رمزى الحزينة، لتصعد الآن إلى حيث السحاب ومافوق السحاب، زارت هى السوربون لكنها لن تخرج منها صفر اليدين.. واذا ماعادت إلى مصر فلسوف تعود منتصرة.. غادرتها مهزومة بما لا ذنب لها فيه، مسحوقة بقوى لا قبل

لها بها . لكنها الآن ، وبعد أن هزمت رمزى ووقفت تنظر إليه من أعلى .. تعلم علم اليقين ، أن هذه هى البداية ، فقط ، هى البداية ..

ولكن .. الى أين

هذا لم تكن تدربه . بل هذا ، مالم تفكر فيه !

■ ■ ■

نظر اليها البروفسور أرموند من خلف زجاج نظارته .. وبدت عيناه شديدتى الزرقة ..

ــ بروفسور .. هل ترى فى شيئا غريبا ؟ !

زام أرموند ولم يجب عن السؤال لكنه راح يحملق فيها مرة أخرى ..

لساعتين كاملتين كانا يتناقشان ، فى الادب فى جان جاك روسو ، فى موليير ، فى فولتير ، فى فيكتور هيجو ، فى الثورة الفرنسية .. فى .. فى . فى كل شىء وكانت ممتازة ، فلم جاء ايزاك لكى يرشحها ؟ !

سؤال لم يجد أرموند له جوابا ... ساد بينهما الصمت لدقائق ظلت فيها مبتسمة .. أخيرا وجد مايقول فقال :

ــ مدموازيل كامل .. هل لك أن تخبرينى بهدفك من هذه الزيارة ؟ !

جاء الرد كالصاروخ فى قوته وبساطته .

ــ لاأعتقد أن أحدا يأتى الى السوربون الا للمعرفة والعلم !

ــ زام لوضوحها وتململ :

ــ أنا لم أحلم بشىء كهذا !

كان ردها مثل لطمة جعلته يقفز واقفا :

ــ .ماذا تقولين ؟ !

ــ أنا لم أحلم بشىء كهذا وأن كنت أتمناه !

اقترب منها محملقا فيها بعينيه الزرقاوين

ــ على هذا المقعد الذى تجلسين عليه الان أيتها الأنسة ، جلس مئات من الطلبة من كل أنحاء العالم ، وعلى مدى ثلاثين عاما كنت استقبل هؤلاء الذين يبحثون ويريدون المعرفة ، ولقد التقيت فيهم بأنماط ونماذج عديدة .. غير أن المحير فى الموضوع كله ، أنك ممتازة !

ــ هذه شهادة أعتز بها حقيقة !

ــ ليست شهادة لكنه تقرير. واقع ، أن نطقك للفرنسية يكاد يقترب من الكمال !

ــ أعرف هذا يا سيدى !

وتوقف .. وبقدر ماهزه غرورها بقدر ما أشاع السرور فى نفسه ، بدت له كطفلة شقية ، لم تكن جميلة ذات الجمال الآسر أو الساحر لكنها كانت جذابه ، نعم ، فى عينيها تحد غريب ..

— مدموزيل عبلة كامل .. ماذا تريدين ؟!

— القوة !

— أن القوة فى العلم تكن القوة الحقيقية .

— ولكن فى المال تكمن القوة الفعلية !

أثاره ردها لأنه كان حقيقيا أم لانه كان سافلا بالقدر الذى يهزه من الاعماق .. أنثنى بعيدا عن الموضوع هاربا من المناقشة وراح يهدر متحركا فى الغرفة بانفعال غامض ؛

— واذا ماقال لك العالم كله أن نطقك للغة الفرنسية يقرب من الكمال فهذا لايعنى شيئا .. أما اذا قلت أنا هذا فهذا هو الذى يجب أن يعنى بالنسبة اليك شيئا

— لقد رددت ما سمعته من الاخرين !

— أنها مملكتى هذه اللغة التى امتصت شبابى وحياتى !

— وانا يابروفسور ملكة فى مملكة ذات وقد كشفت لك عنها القناع !

— أتريدين أن تقولى أنك لم تفكرى فى البعثة أبدا ؟!

— لم أحلم بها وأن كانت تبدو لى الان وكأنها أمنية الامانى جميعا !

— مدموازيل كامل .. من أنت ؟!

— أنا .. عبلة كامل !

فليأت الجميع اذن ليصفقوا فليس بعد هذا أنتصار.. ولو أنها رأت ماحدث اليوم فى السوربون فى الحلم لا ستيقظت وظلت تضحك من الاعماق لم تكد تتفوه بالاجابة حتى وقع الاستاذ صريع القوة، ولقد قال نابليون ذات يوم : لا توجد كلمة مستحيل الا فى قاموس الضعفاء ... وها هى القـوة تؤتى ثمارها .. يجرى نهر السين تحت قدميها كالحلم الذى طال انتظاره، وهى تعرف رقم الاتوبيس الذى ستركبه لكنها لاتعرف أين تنزل منه .. أعطاها البروفسور بيير فى القاهرة عنوان بنسيون رحبت بها صاحبته وأختفت .. وها هى تصعد الاتوبيس تكاد تصرخ من السعادة والفرح، ولسوف تبقى فى القاهرة أسابيع تعود بعدها الى مدينة النور، تميل على جارها لتسأله عن المحطة بالفرنسية فاذا الرد يأيتها بالعربية :

— لسه فاضل محطتين

تطلعت اليه فاذا الوجه أوربى محوطة لفحة الشرق الدافئة :

— ايزاك .. اسمى ايزاك !

— وعرفت منين أنى مصرية !

— اللى يعيش فى مصر تمنتاشر سنة مش محتاج حد يعرفه على حد مصرى ؟!

— أنت عشت فى مصر تمنتاشر سنه !

وأتصل الحديث

وكان ايزاك رقيقا كالفرنسيين ، فرنسى هو لكنه ولد فى القاهرة عندما كان أبوه موظفا ببنك الكريدى ليونيه .. فى حديثة رنة صدق لاتخطئها أذن غير أنه صدق مشوب بالغموض .. غادر معها الاتوبيس وسار بجوارها حتى البنسيون وأعطاها رقم تليفونه ووضع نفسه تحت أمرها لو أرادت .. ودعته فأنصرف دون أن ينظر خلفه . دلفت الى الداخل فلم تلحظ تلك النظرات التى كانت تحيط بها أينما ذهبت ، رحبت بها مدام لاروش صاحبة البنسيون وغمزت بعينيها وهى تحذرها من الرجل الفرنسى الذى يتقن الغزل كما يتقن شرب النبيذ .. تناولت طعام الغداء وصعدت الى غرفتها غير أن السعادة حلتها على أجنحتها بعيدا عن النوم .. حل المساء فهبطت الى الطريق وكان الشانزلزيه هو بغيتها . ها هى الحرية أخيرا بين يديها كاملة ، لا أب ولا أم ولا صبرى يطاردها ليل نهار بعذاب بلا حدود .. جلست فى أحد المقاهى وطلبت قهوة سوداء وسرحت ــ رغما عنها ــ الى صبرى ، ذات يوم كان يحكى لها عن المطارات وهناجر الطائرات التى يبنيها .. كان يحكى عن الجبهة وقواعد الصواريخ . كان يجلسان على النيل عندما سألته :

ــ الا قولى ياصبرى .. مش الكلام اللى أنت بتقوله ده سر ؟!

وتلجلج كطفل صغير يحبو، ارتبك وتضرج وجهه بالحمرة ..

ــ أنت زعلت ؟!

ــ لا ..!

ــ أمال مالك ؟!

ــ أسمى ياعبله .. اللى زيى الناس بتحسده على اللى هو فيه .. أنا عندى ٣٢ سنة ومدير عام .. أنا باحب شغلى أه انما باتعب فيه ، عارفة يعنى أيه مطار سرى عارفة يعنى أيه ملجأ لطيارة ثمنها كذا مليون جنيه ،، عارفة يعنى ايه قاعدة صواريخ أنا ليل ونهار مغروس فى شغلى ، وعمرى ما أتكلمت مع حد فى الشغل ده .. لكن الواحد ساعات بيحب يفضفض .. أفضفض مع مين ماكنتش حافضفض معاكى ؟!

يومها بدا لها صبرى مثل طفل حقيقى .. كان رقيقا .. كان معذبا . كان . كان وحيداً.

ــ بونسوار مدموازيل عبلة !

ــ رفعت رأسها وكان وجه أيزاك يطل عليها باسما .

ــ بونسوار مسيو ايزاك !

ــ تسمحى لى أقعد معاكى !

ــ من فضلك !

وجلس !

■ ■ ■

صاحت سلوى فى عزت !

ــ عزت تكونش بتغير من عبله صحيح ؟

ــ دى مش غيرة ياسلوى !

ــ أمال أيه الكلام اللى أنت بتقوله ده !

ــ تعالى نحسبها سوا .. ازاى تقولى أن عبلة أنسانه عادية وهى بترفض كل حاجة حلوة بتيجى لها ؟

ــ هى دى عبله !

ــ رمزى اعتذر لها .. رمزى تعبان !

ــ وهى كمان تعبت أكتر منه . خليه هو يتعب شويه !

ــ طب وصبرى .. ابن خالتك ؟ !

ــ عبلة مش بتحبه !

ــ أمال بتحب مين ؟ !

كان هذا هو السؤال الذى يشغل بال سلوى ... ... كانت تحب عبلة : نعم .. وكانت تعرف عنها مالا يعرفه أحد : نعم .. وكانت معجبة بها : نعم .. غير أن هذا السؤال ظل مطروحا بلا أجابة .. ومنذ أن فعل رمزى فعله معها ، وهى تتغير ، شىء غريب كان ينمو تحت جلدها . شىء مخيف كان يقود عبلة نحو مجهول لايعرفه أحد .. ربما كان عزت على حق و ربما كان مخطئا ، وسواء أكان هذا أم ذاك . فلا شىء بعيدا عن عبلة .. لاشىء .. التفت الى عزت وكان مستغرقا فى مشاهدة التليفزيون :

ــ عزت .. أنت عاوز تقول أيه على عبله ؟ !

ــ عاوز أقول أن عبلة أما تطلع فى سابع سما .. وأما حاتنزل ..

وقاطعته سلوى :

التفت نحوها واعتدل وقال :

ــ ياريت .. كانت تهون !

ليلتها لم تنم سلوى قبل الخامسة صباحا .. فما الذى كان يفكر فيه عزت ؟ !

■ ■ ■

كانت بجواره وكل ذرة فى عقلها تحسب الحسبة .. ولاجواب .

كان صحفيا فى احدى وكالات الانباء وكان مسؤلا عن الشئون العربية وكان يعرف كل ما يجرى فى باريس عن العرب .. عندما علم أنها ستعود لبعثة دراسية نبهها الى أن مرتب البعثة لن يكفيها لكى تعيش فى باريس واذا كان البروفسور أرموند قد قال لها فى الصباح أن اللغة نتاج حضارة فها هو ايزاك يقول :

ــ علشان تعرفى فرنساوى كويس لازم تعيشى فى باريس !

سألته عن نفسه فراوغ وزاغ ولم يذكر لها شيئاً رغم أنها ذكرت له كل شىء . قال لها انها تستطيع أن تجد عملا فى

« الشركة العربية للتصدير والاستيراد ». لكنه لم يذكر لها أنه يعرف فيها أحدا .. سألته فجأة :

ـ طب ازاى تعرف كل الحاجات دى ولا تعرفش حد من العرب !

ونظر اليها نظرته تلك الواثقة الغريبة وقال :

ـ انت نسيت انى صحفى !

ـ ما هو علشان صحفى لازم تعرف الناس !

ـ أنا أعرفهم أنما هم مش لازم يعرفونى !

و.. لقد كان حديثه أقرب الى الواقع وهو يحكى عن الصحافة فى الغرب .. و.. ولقد كان حديثه طليا شائقا وهو يحكى عن متاعب المهنة .. و.. ولقد كان حديثه مثيرا وهو يحكى لها عن تتبعه ذات يوم لزعيم عربى جاء الى باريس سرا لعقد صفقة سلاح لكنه سبق الجميع بالنبأ بعد مطاردة استمرت أسبوعين ..

وعندما ودعها أمام البنسيون لم يطلب منها موعدا للقاء .. لكنه ذكرها بأنها تحمل رقم تليفونه

لكن عبله عادت الى القاهرة دون أن تطلبه ودون أن تراه ..

■ ■ ■

فى مساء أحد الايام سبتمبر كان ايزاك يجلس مع ديفيد .. وكان ديفيد قد وصل من تل أبيب منذ ساعتين فقط .. وكان الحديث بينهما يدور حول عبلة كامل .. قال ديفيد :

ـ تحب نتكلم بالعربى ؟ !

ـ أحسن علشان أتمرن شويه معاك !

ـ عبلة كامل حاتوصل باريس بكرة !

ـ والمطلوب ؟ !

ـ الأوامر فى تل أبيب بتطلب تجنيدها بأسرع ما يمكن .. كل التقارير اللى اتقدمت عنها بتقول أن عبلة كامل من الممكن أنها تكون مفيدة بشكل غير عادى !

ـ علشان علاقتها بصبرى عبد المنعم ؟ !

ـ مش بس صبرى .. عبلة .. عبلة .. نفسها مطلوبة للغاية ! ..

■ ■ ■

بعد ذلك بأربعة أسابيع كانت عبلة تسير بجوار ايزاك على شاطىء السين ، كان الخريف يحمل معه بشائر برودة الشتاء القارس .. وكانت الاسابيع التى مضت تحمل فى أحشائها الكثير من التغيرات .. وكانت المناقشة بين عبلة وأيزاك تدخل طورا غريبا .. التفتت اليه عبلة قائلة :

ـ ايزاك .. أنت قلت لى أنك صحفى !

ــ عبلة . مالك ؟ !

ــ وطلبت منى أنى «أديك» أخبار عن الطلبة العرب والمصريين !

ــ أنا عاوز أزود دخلك ياعبلة !

ــ سألتنى عن كل حاجة فى حياتى وعرفتها !

ــ مجرد دردشة !

ــ فى الأول كنت عاوز تعرف أخبار!

ــ شغلى ياعزيزتى . أكل عيشى !

ــ و بعدين بدأت تسأل عن أخبار من نوع معين !

ــ الصحفى بيجرى ورا المتاعب !

ــ و بعدين بدأت تسأل عن أسرار!

ــ ودى فيها أيه ؟ !

ودلوقتى على الشركة العربية ، ورحت وسألت ولقيت شغل !

ــ لانك موهوبة !

ــ ورغم كل ده .. عمرك ماقلت لى أيه اسم وكالة الانباء اللى أنت بتشتغل فيها !

وساد بينهما الصمت .. ساد تماما . ولم يعد أيزاك يسمع سوى صوت خطواتها فوق بلاط الشارع .. راح يرقب عبلة وهى

تسير بجواره .. كانت فى عينيها نظرة غريبة كانت مخلوقة غريبة وعندما راحت تتحدث من جديد كانت وكأنها تتحدث مع نفسها :

ــ سألتنى عن صبرى وعن شغله ..

ــ سألتنى عن المطارات السرية ، سألتنى عن الجبهة !

ــ عبلة .. عاوزة تقولى أيه ؟ !

ــ عاوزة أقول إنك بتشتغل لحساب اسرائيل ؟

ــ وتجمدت الابتسامة على شفتيه .. وكاد يشهق وهو يسمعها تقول :

ــ وأنا مستعدة أشتغل معاكم .. تدفعوا كام !

■ ■ ■

ابدا .. ولا أدق اجهزة التحليل البشرى فى «الموساد» ــ المخابرات العامة الاسرائيلية ــ أستطاع أن يتنبأ بهذا الذى حدث .. لا الكومبيوتر ولا المعلومات ولا التحليلات ولا هذا الحشد من العقول الجبارة الذى أنكب يدرس ماحدث .. أستطاع أن يصل إلى تفسير...

لم يكن التقرير الذى كتبه «أيزاك» من باريس ، تقريرا .. ففى تلك الليلة الخريفية التى عرضت فيها عبلة عليه أن تتعامل مع المخابرات الاسرائيلية لم يستطع أن يكتب شيئا ، لم يكن هناك مايمكن أن يكتب... ظل وقتا طويلا بعد أن

ـ عبلة . مالك ؟ !

ـ وطلبت منى انى «أديك» أخبار عن الطلبة العرب والمصريين !

ـ أنا عاوز أزود دخلك ياعبلة !

ـ سألتنى عن كل حاجة فى حياتى وعرفتها !

ـ مجرد دردشة !

ـ فى الأول كنت عاوز تعرف أخبار!

ـ شغلى ياعزيزتى . أكل عيشى !

ـ و بعدين بدأت تسأل عن أخبار من نوع معين !

ـ الصحفى بيجرى ورا المتاعب !

ـ و بعدين بدأت تسأل عن أسرار!

ـ ودى فيها أيه ؟ !

ودلوقتى على الشركة العربية ، ورحت وسألت ولقيت شغل !

ـ لانك موهوبة !

ـ ورغم كل ده .. عمرك ماقلت لى أيه اسم وكالة الانباء اللى أنت بتشتغل فيها !

وساد بينهما الصمت .. ساد تماما . ولم يعد أيزاك يسمع سوى صوت خطواتها فوق بلاط الشارع .. راح يرقب عبلة وهى

تسير بجواره .. كانت فى عينيها نظرة غريبة كانت مخلوقة غريبة وعندما راحت تتحدث من جديد كانت وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ سألتنى عن صبرى وعن شغله ..

ـ سألتنى عن المطارات السرية ، سألتنى عن الجبهة !

ـ عبلة .. عاوزة تقولى أيه ؟ !

ـ عاوزة أقول إنك بتشتغل لحساب اسرائيل ؟

ـ وتجمدت الابتسامة على شفتيه .. وكاد يشهق وهو يسمعها تقول :

ـ وأنا مستعدة أشتغل معاكم .. تدفعوا كام !

■ ■ ■

ابدا .. ولا أدق اجهزة التحليل البشرى فى «الموساد»

ـ المخابرات العامة الاسرائيلية ـ أستطاع أن يتنبأ بهذا الذى حدث ... لا الكومبيوتر ولا المعلومات ولا التحليلات ولا هذا الحشد من العقول الجبارة الذى أنكب يدرس ماحدث .. أستطاع أن يصل إلى تفسير ...

لم يكن التقرير الذى كتبه «أيزاك» من باريس ، تقريرا .. ففى تلك الليلة الخريفية التى عرضت فيها عبلة عليه أن تتعامل مع المخابرات الاسرائيلية لم يستطع أن يكتب شيئا ، لم يكن هناك ما يمكن أن يكتب ... ظل وقتا طويلا بعد أن

ترك عبلة حائرة، كان هذا الذى حدث فوق كل تصوراته، فلم يجد مايكتبه سوى نص الحديث الذى دار بينه وبينها على شاطىء السين فى باريس.

فى تلك الايام أنكب أحد العلماء، وكان أشيب الشعر عريض الجبهة، لم أستطع الحصول على اسمه ــ ربما لاعتبارات أمن مصرية!! ــ قد قرأ نص الحديث مرات، ثم خلع نظارتة الطبية وغرق فى التفكير العميق... كان قد أطلع على كل شىء عن عبلة كامل، ثم خرج بنتيجة مذهلة، تلك النتيجة كانت تقول: أن عبلة كامل ظاهرة.

بعد أسبوعين خرجت من الموساد تعليمات موجهة الى باريس تقول:

«لابد من وصول عبلة الى تل أبيب!»

كان هذا هو الحل الوحيد، أن توضع «الظاهرة» تحت الفحص الدقيق فى تل أبيب نفسها، فى داخل الموساد وتحت مجهر أعتى خبراء الانسان، وأحدث الاجهزة العصرية لكشف الكذب والصدق ولمعرفة هذه «الظاهرة» التى لم يسبق لها مثيل فى عالم الجاسوسية.

ودق جرس التليفون فى غرفة عبلة ذات صباح، وجاءها صوت أيزاك، وكان يتحدث «بالكود» وهو حديث بالشفرة لايستطيع فهمه سواها.. وكان يحدد لها موعدا بعد ساعة واحدة بالضبط.

فى ذلك الصباح على وجه التحديد، كان فى القاهرة ضابط مخابرات شاب اسمه «عمر حمدى». وكان عمر يتذكر مقابلة الليلة السابقة مع «الدكتور»... كان «الدكتور» كالعهد به بسيطا الى حد الغموض الشديد، وكان يتحدث عن نشاط الاسرائيليين الذى تزايد فى السنوات الاخيرة فى باريس بالذات.. وكعادته، لم يقل الدكتور شيئا عن الموضوع الذى استدعى عمر من أجله.. كان يعلم ان «عمر» ضابط من نوع خاص، لايقتله فى الدنيا سوى الروتين والنظام والقيود.. وكان اذا ترك لحاله، تصرف فى حدود الروتين والنظام دون أدنى خلل.. كان يعلم أن عمر «هاو» أكثر منه محترفا... كذلك، ففى نهاية المقابلة التى شرب أثناءها عمر كوبا من الينسون سلمه الدكتور مظروفا أصفر كبيرا، وتبادل كل منهما النظرات، ثم أنصرف عمر!

كان كل مايحويه المظروف شيئا غريبا.. قد يحدث لى أولك، قد يصادفك أو يصادفنى دون أن يلفت أنظار أحد على الاطلاق.. كان «أحمد» ضابط المخابرات المصرى فى باريس يكتب عن مقابلة جاءت بمحض الصدفة، بينه وبين الدبلوماسى الشاب عزت حسين، وكان عزت عريسا حديثا يصحب عروسه الى قمم الجبال للانزلاق على الجليد.. لم يكن هناك مايثير فى عزت وعروسه سلوى، لكن الذى لفت نظر

أحمد ــ وكان صديقا لعزت تقابل صدفة معه فوق قمة أحد الجبال للاستمتاع بالجليد ــ ذلك الحديث الذى يدور بين عزت وسلوى حول صديقة لسلوى تدعى «عبلة كامل» .. ولقد نسى أحمد ذلك الحديث بعد دقائق من مغادرته لسويسرا فى طريقه إلى فرنسا فى نهاية عطلة الاسبوع .. غير أنه تذكر كل شىء فجأة، عندما سمع اثنين من المصريين، كانا يجلسان ذات مساء أحد مقاهى الشانزليزيه، وكانا يتحدثان بحماس شديد عن «عبله كامل» ؟

هو نوع من الحدس لايستطيع الانسان تبريره على الاطلاق، غير أن «أحمد» عرف فى صباح اليوم التالى، أن عبلة تشغل وظيفة سكرتيرة لمدير الشركة العربية للاستيراد والتصدير فى باريس، وأن حيويتها ونشاطها جعلا منها حديث الناس فى المكتب.. كان كل شىء، منذ أن تولت عبلة عملها هناك يسير بدقة ونظام جعلا منها نجما يلهج الجميع بالثناء عليها.. الى هنا كان الامر طبيعيا للغاية، لكن غير الطبيعى أن عبلة لم تكن قد قضت فى باريس سوى شهور قليلة، ورغم هذا كانت كل التقارير التى كتبت عنها فى السوربون، تقول أنها : أكثر من ممتازة.. وفوق كل هذا لم يقتصر الامر على نشاطها العلمى، بل تعداه الى ذلك النشاط وتلك الحيوية التى تميزت بها عبلة وسط الطلبة العرب فى السوربون، وعلى

مقاهى الشانزليزيه.. ولم يكن شكا بحال من الأحوال، هذا الذى دفع أحمد ــ ضابط المخابرات المصرى الذى يشغل وظيفة مدنيه فى باريس ــ الى السعى للقاء عبلة. أبدا لم يكن الشك، فلم يكن حول هذه الفتاة المصرية أى شىء يثير الشبهات، لكنه كان حب الاستطلاع !

ولقد تعمد هذا الشاب أن يلتقى بعبلة، لكنه ــ شأنه شأن هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يقبعوا خلف أسوار الصمت. تعمد أيضا ألا تلتقى هى به... وكانت المفاجأة مذهلة.

ذلك أنه فى علم المخابرات غير المكتوب، والذى يكتسب بالتجربة والمران والخبرة المتراكمة عبر السنين، يوجد نوع من الاسئلة، أو أسلوب للمناقشة، يبدو لاشد العيون والاذان تدقيقا، أسئلة أو مناقشة عادية، لكنها بالحس وحده يظهر أن هذا النوع من الاسئلة من نوع الاسئلة الاستشارية، التى تستثير السامع فتدفعه للادلاء بالمعلومات فى مجال المفاخرة أو المباهة أو محاولة التظاهر بالعلم ببواطن الامور، أو حتى فى مجال الحماس.

كانت أسئلة عبلة من هذا النوع ؟..

فكيف ! ؟..

كان الأمر عويصا غريبا مثيرا دون شك.. فإن الجاسوس القادر على القاء هذه الأسئلة، لابد أن يمر بمراحل تدريبية

عنيفة ، تجعل قدرته على التحكم فى القاء السؤال واسلوب طرحة وحتى نبرة الصوت ، لا توحى بأقل قدر من الشك ..ولقد كانت عبلة قد قضت فترة بسيطة فى باريس ، وكان تدريبها على هذا المستوى ، أمرا مستحيلا .

مرة أخرى ... كيف ؟ !

وفى حديقة النادى ، وتحت شمس الخريف ، كان « عمر حمدى » يفكر فى عبلة كامل ... ويبدوا أنه فى لحظة كان قد توصل الى قرار ، فلقد غمغم وهو ينهض بكلمة غريبة ... قال :

ــ ظاهرة .. ثم أنصرف !

■ ■ ■

فى تل أبيب كانو أمام طريقين .

فاما ان تكون عبلة كامل عميلة للمخابرات المصرية ، دربت تدريباً عاليا ..

وأما أن تكون .. « ظاهرة » ! !

وكانَ الملل فى وصول عبلة الى تل أبيب .. ولكن ، قبل رحلتها الخطيرة تلك .. لابد من قيامها برحلة الى مكان آخر .. رحلة استكشافية الى « القاهرة » ...

وكان هذا ما قاله ايزاك لعبلة فى ذلك الصباح ...

ــ عاوزينك تسافرى مصر ، وتحاولى تعرفى معلومات عن محطات الصواريخ بين مصر واسكندرية !

ــ « أو. كى » .

قالتها عبلة وكأنها تلبى دعوة للسينما !

كانت التقارير التى تقدمها عبلة عن الشركة العربية للاستيراد والتصدير ، مذهلة وكانت معلوماتها عن الطلبة العرب واتجاهاتهم السياسية رهيبة ، أكثر من ذلك ، فلقد دفعت الى « عملاء » أيزاك ، الذين لا تعرفهم ، ببعض الطلبة العرب الذين حلوا الى بيوت الملذات هناك ، حيث يغرقون فى الخمر واللحم الابيض ، وينزلقون من حيث لايشعرون بكل ما يعرفون من معلومات !

■ ■ ■

هنا وهناك كان الامر غير طبيعى ، وهناك كان الامر يدعو للدهشة والشك ..

أما عبلة نفسها ، فكانت تحيا وسط خضم رهيب من الاحساس بالسيطرة والجبروت والانتصار !

وها هى القاهرة مرة أخرى تحت قدميها .. ومنذ أسبوع زارها « رمزى » فى باريس ، كان يريد ولايريد ، فى عينيه نظرة توسل وقد وقع فى حبها حتى قمة رأسه ، وكم تلذذت وهى تركب بجواره سيارته « المرسيدس » الفاخرة ، وكم تمتعت وهى تستمع الى موسيقى « الكاسيت » ، وكم خفق قلبها وهى تسمعه يهمس :

ـ عبلة ... مش نتجوز بقى ؟..

لكنها أبتسمت ، لم تفكر لحظة ، وقالت :

ـ لا .. ! !

غير أن صبرى عبد المنعم كان فى أنتظارها فى المطار، وكان صبرى بالذات هو بغيتها هذه المرة !

وكم كانت أجراءات الجمارك معها سهلة ، رحبوا بها ـ على غير العادة ـ ولم يفتحوا حقيبة واحدة من حقائبها الاربع .. كانت قد أشترت كل ماتحتاج اليه أمها ، وكان أبوها قد سافر الى أحدى الدول العربية مهاجرا من جحيم الام ... وكان صبرى فرحا سعيدا يقبل يدها بين الحين والحين وهو يهمس :

ـ واحشانى !

وكانت تبتسم .. وكانت تعرف الطريق جيدا الى بغيتها ...

ـ صبرى .. عاوزه أتفسح .. مصر واحشانى !

واذا كاز الملل هو سر القوة ، فها هى تحصل على المال بالزوفة .. واذا اقترب منها احد فانها تتحداه أن يعثر على دليل واحد ضدها ... مصر واسرائيل أو حتى جهنم .. لايهم ، لايهم ، المهم أن تبقى قوية ، وأن تظل قوية .. هناك ، فوق القمة لا يهجرها رجل من أجل امرأة ، أو من أجل فقر نشأت

فيه دون ذنب .. المال هو القوة الحقيقية يابروفسور أرموند صدقنى ، ومهما قلت عن العلم فهمته الحقيقية هى زيادة حصيلتك من المال ... فالمال هو الذى يشترى و يبيع و يبنى ويهدم ، وهو الذى يخترع و يبتكر أيضاً ...

مالك ياعبلة ؟ !

كان فى الطريق من القاهرة الى الاسكندرية ، الطريق الزراعى حيث اللافتات تقول : ممنوع مرور الاجانب ... وكانت تطلق ضحكة ، وكان صبرى يجيب ، هنا مطار سرى وهنا مطار سرى ، فى هذا المطار بنى صبرى أربعة هناجر للطائرات ، أما هذا فيقع على بعد ٢٠ كيلوا مترا داخل المزارع ، ولقد وقعت فيه حادثة كاد صبرى يفقد فيها عمره .

كان يكفى أن تلقى اليه سؤالا بسيطا ، كى يقول و يقول ، فتسمع هى وتسمع ، وتختزن وتختزن ...

فى الاسكندرية قضيا يوما رائعا .. أعطته عبله شفتيها نعم ، لكنها لم تعطه أكثر ..

وفى اليوم التالى عادا من الطريق الصحراوى .. وفيه عرفت عبلة مواقع وحددت فى رأسها خرائط ، وقال صبرى الكثير من المعلومات !

وعندما عادا الى القاهرة ، كانا يبدوان فى قمة السعادة ..

لكن انسانا آخر . فى القاهرة ، كان يبدو تعيسا أشد ماتكون التعاسة .. وكان اسم هذا الانسان .. « عمر حمدى » .. وكانت وظيفته : ضابط المخابرات العامة المصرية .

■ ■ ■

خرج عمر بيقين لايقبل الجدل .. أن عبله كامل : جاسوسة !

واذا كان لا يملك الدليل .. فانه تعود الصبر .. وذات عصر كانت تجلس مع صبرى عبد المنعم فى أحد الكازينوهات المطلة على النيل ، أما عمر ، فكان جالسا فى سيارته ، بعيدا عنها تماما ، على الطريق العام ، غير أنه كان يسمع كل كلمة يقولانها ! !.. فتحت غطاء المائدة الانيق ، كان ثمة رأس مسمار صغير لا يلحظه أحد ولا يراه ، وكان رأس المسمار هذا شديد الحساسية ، ينقل كل كلمة وكل حركة وكل صوت مهما خفت ، بدقة شديدة الى سيارة عمر....

ـ مالك ياعبله ! ؟

ـ أبدا ياصبرى ....

ـ مسافرة بكرة !

ـ حاوحشك ! ؟

قال صبرى : « قوى قوى » ... ثم ضاع الصوت فى سيارة عمر .. فلابد أن صبرى وضع يده فوق رأس المسمار .. وكان فى مكانه يستطيع أن يرى صبرى بوضوح وقد أمسك بيد عبلة .

ـ فيه أية ياعبلة لازم تقولى لى !

وقصت عليه عبلة القصة .. ان قوما فى باريس انقذوها من ورطة وقعت فيها ، ورطة تقع فيها أى فتاة غريبة فى بلد غريب .. هؤلاء الناس لايريدون مقابلاً لما قدموه لها سوى بعض المعلومات ، انهم يعلمون من أجل السلام ..

ـ أنت بتبنى للحرب ياصبرى .. أنت بتبنى دشم وهناجر وقواعد وصواريخ .. لكن .. هل أنت عاوز الحرب ؟!

ساد الصمت .. وتوتر عمر فى جلسته ، أنه يريد أن يدفع أى عدد من سنى عمره ولا ينزلق هذا الشاب ، لو أنه عرف قبل اليوم ـ على وجه اليقين ـ أن هذا سوف يحدث لنقله ، لطلب سفره إلى آخر الدنيا حتى لايلتقى بعبلة .. أن كل شىء يتم بسرعة جنونه ، هذا الشاب العبقرى يفقد حياته ووطنه ، يفقد كل شىء من أجل نظرة من عينى فتاة انغرس الحقد فى قلبها حتى نخاع النفس ذاتها ..

ـ عاوزة ايه ياعبلة !

ـ أى معلومات هايفة !

ـ بس المعلومات إللى عندى سرية ، خطيرة !

استكانت عبلة كقطة، قالت:

ــ طيب بلاش!

وجن جنون صبرى، ها هى طوع يديه، ولكن عليه أن يدفع الثمن..

ــ على العموم أنت مش حاتقول لى حاجة ببلاش، كل بثمنه!..

ــ ثمن ايه ياعبلة.. مهما كان الثمن، دى أسرار البلد!..

ــ خلاص. يعنى لما نتجوز، حاتعمل بيتنا منين، وازاى؟!

وكانت هذه هى القشة التى قصفت عمر صبرى.. ففى تلك الليلة، اعطته نفسها لأول مرة وآخر مرة، فقال نعم!..

كان هذا هو الجنون بعينه.. ولابد من استدعاء عبلة كامل إلى تل أبيب فى أسرع وقت!..

كان ايزاك مذهولا مما حدث.. لقد كسرت عبلة كامل كل قواعد الأمن وقوانينه..

ــ انت مجنونة.. ازاى تعملى كده؟!...

فى برود ردت عليه:

ــ بلاش تاخذ المعلومات.. بسيطة!..

ــ عبلة.. فيه حاجه اسمها أمن.. وتدريب.. دانتى كنتى مكلفة أنك تجيبى شوية معلومات وبس.. لكن تشتغلى فرازة، وتجندى صبرى.. ده جنان، حايبلغ عنك!..

ضحكت عبلة وقالت:

ــ صبرى هنا.. فى شنطة ايدى دى!..

وبعد لحظات قالت:

ــ على العموم، أما ماقلتش حاجة خالص.. واذا حد اتشنق، أنا اللى حاتشنق يا ايزاك!..

بعد أسبوع بالتمام والكمال.. كان «عمر حمدى» يقف فى مطار «روما» وهو يرتدى بالطو ثقيلا، وقبعة انجليزية، ونظارة شمسية سوداء.. وكان يرقب عبلة كامل، وكانت قد وصلت من باريس فى نفس اليوم، وهى تتجه نحو احدى طائرات شركة العال الاسرائيلية فى خطا ثابتة.

كان يعرف أنها تحمل جواز سفر اسرائيليا، وكان يعرف اسمها الجديد!!

ثلاثة أسابيع فى اسرائيل، زارت فيها عبلة كامل، أحد الكيوبترات، كما زارت مواقع الجيش الاسرائيلى فى الجبهة المصرية ــ!!! ــ وزارت أيضا مبنى الكنيست وحضرت احدى المناقشات الحادة!

ثلاثة أسابيع قضتها عبلة كامل فى اسرائيل .. ثلاثة أسابيع تركت فيها علامة غريبة ..

كانت كل أجهزة الفحص قد اثبتت أن عبلة كامل ليست عميلة للمخابرات المصرية .. لكنها أيضاً أثبتت أنها « ظاهرة » غريبة .. ففى احدى الحفلات التى أقيمت لها ، رفع أحدهم كأساً قائلاً :

ـــ نخب البطلة عبلة كامل ! ..

وشرب الجميع النخب الا هى ...

ـــ مدموازيل عبلة .. نحن نشرب نخبك ؟!

ـــ لكنى لست بطلة .. أنا جاسوسة !

وذهل الجميع ، غير أن عبلة كانت تبتسم ...

وفى آخر لقاء لعبلة مع واحد من كبار ضباط « الموساد » ، كان يحضر اللقاء أربعة من ضباط المخابرات الاسرائيلية .. وكان الضابط الكبير يبدو سعيدا سعادة لا حد لها وهو يقول :

ـــ صدقينى يا آنسة عبلة .. أنك أفضل عندى من هؤلاء الأربعة مجتمعين !!

وكان هذا نصا من الاعترافات التى أدلت بها عبلة كامل بعد القبض عليها .

■ ■ ■

هذه قصة واحدة من أعنف قصص الذكاء فى هذا العالم الغريب ..

كان عام قد مضى .. وكان صبرى قد انزلق تماما .. أصبح جاسوسا يكتب التقارير بالكربون السرى ويرسل الاشارات اللاسلكية .. القصة طويلة ، وانهيار هذا الشاب وحده يحتاج إلى صفحات وصفحات ، ويوم أعطته عبله أول الف جنيه ، أنفق منها عليها قبل أن تعود الى باريس ثمانمائة جنيه .. وعمر حمدى ، هذا الشاب الصبور الذى كان يعلم أن أيزاك هناك على الشاطىء الاخر للبحر الابيض المتوسط يرسم الخطط و يدبر ، والذى كان يعلم ان الانتصار يعنى الصبر .. ولم يكن الانتصار هو القبض على عبلة أو صبرى .. ذلك أن الجاسوس ، يوم أن « يعرف » يصبح بلا قيمة بالنسبة للجهاز الذى يقاومه ، أنه يوضع ، ليل نهار ، كل لحظة من لحظات عمره ، كل همسة وكل حركة تحت التسجيل الدقيق ، هنا كان صبرى مكشوفا تماما بلا قيمة وكل المعلومات التى كانت توضع تحت يده كانت صحيحة ، لكنها كلها كانت معدة بدقة لا تقبل الشك لحظة .. وهناك كانت عبلة قد استأجرت مسكنا فاخرا وعاشت فيه .. الجاسوس يصبح بلا قيمة للجهاز الذى يقاومه يوم يكشف أمره ، ويصبح بلا قيمة للجهاز الذى يشغله يوم يقبض عليه ..

لم يكن هناك خطر من صبرى أو من عبلة ، ولقد كان الهدف ، والضربة ، هو ايزاك ..

وكم تمنى «عمر حمدى» أن يجرجر رجل ايزاك إلى القاهرة !

غير أن «الدكتور» ـ كعادته ـ استدعاءه ذات يوم ..

ـ ايه الأخبار يا عمر!

وبسرعة أفضى عمر بتقرير مركز ومكثف عن القضية .

بعدها ساد الصمت طويلا .

ـ فيه حاجة يا فندم ؟!

قال «الدكتور» :

ـ اقبض على صبرى عبدالمنعم !

لطمة كانت هى . ضربة قاضية لكل الخطط التى وضعها عمر حمدى . أصيب للحظات بذهول .. كان هذا الأمر مثل قبضة رهيبة تهوى فوق رأسه .. أن القبض على صبرى ، معناه أن عبلة أصبحت طليقة إلى الأبد ..

ـ عبلة فى باريس يا فندم !

ـ وعبلة لازم تيجى مصر .. بأى ثمن !

ـ يا فندم ..

وقبل أن يكمل عمر حمدى قاطعه الدكتور:

ـ ده أمر يا عمر .. اقبض النهارده على صبرى .. وعبلة لازم تيجى مصر فى أقرب وقت !

ـ طب ازاى !

ـ بأى شكل !

ساد الصمت تماما تلك الغرفة العتيدة ذات الجدران العالية والزخارف ، والتى كانت ذات يوم مملوكة بالقصر الكائنة فيه لأحد أثرياء اليهود الذين امتصوا دم الشعب لأربعين عاما ، ثم تركوا مصر بثرواتهم إلى الخارج .. كان هذا الأمر ـ الآن ـ يعنى بالنسبة لعمر شيئاً غريبا .

ـ أمتى يا فندم آخر ميعاد لازم تيجى فيه عبلة !

ـ قبل أكتوبر يا عمر .. قبل أكتوبر!

كان هذا الحديث فى اليوم الثالث من شهر مارس عام ١٩٧٣ .

وخرج عمر حمدى ورأسه يدوى بآلاف الاسئلة .. وكان فى هذا الحديث الكفاية !

■ ■ ■

ـ .. صبرى .. أنا عاوزك تسمعنى كويس ، عاوزك تفتح لى ودانك ، أنا معنديش لك أى وعد بأى حاجة .. كفاية أنك اعترفت انك أخطأت فى حق البلد وهى فى حالة حرب ،

كفاية كل اللى قلته ، وكفاية الأدلة اللى اكتشفت اننا عارفين مكانها من زمان .. الكربون السرى ، الشفرة ، جهاز الارسال .. كل حاجة .. كل حاجة !

كان صبرى يجلس ذاهلا عن كل شيء منذ أن قبض عليه بمعرفة النيابة .. وكانت النيابة العسكرية قد استجابت لرجاء المخابرات العامة بأن يبقى صبرى فى بيته لا يبرحه .. ولقد تعود رجال النيابة العسكرية ألا يسألوا عن الأسباب .. تم كل شيء فى هدوء ، وانهار صبرى واعترف بكل شيء .. وها هو عمر ، شاب دمث الخلق ، يحدثه برقة .

ـ ايه اللى مطلوب منى يا عمر بيه ؟!

ـ عبلة كامل !

وساد الصمت ..

ساد تماماً .. ولدقائق زادت على الخمس لم ينطق أحدهما بكلمة .. بعدها نهض عمر قائلاً :

ـ خذ وقتك وفكر .. ولما يستقر رأيك على حاجة ، ادينى خبر !

ـ أنا موافق .. ايه المطلوب منى ؟ ..

جلس ايزاك فى الشقة الفاخرة التى استأجرتها المخابرات الاسرائيلية لعبلة كامل فى حى من أرقى أحياء باريس ، وكان يمسك بيده كأسا من الكورفوازيه الفاخر ، وقال :

ـ انت ايه رأيك يا عبلة !

ـ رأيى أنى أسافر طبعاً ؟

ورغم كل ما كانت تتمتع به عبلة من عبقرية ، إلا أنها كانت تنقصها الخبرة !

فلقد اشتم ايزاك من تلك الرسالة الشفرية التى وصلت .. والتى طلبت من عبلة أن تسافر إلى بيروت لتلتقى ، بعد أربعة أسابيع بالمهندس على شاكر ، عضو البعثة الاقتصادية المصرية ، لتتسلم منه رسالة هامة ، اشتم رائحة ليست طبيعية .

ـ أنا مش مرتاح للرسالة دى يا عبله ..

ـ أيه السبب .. صبرى بعت رسالته فى ميعادها بالضبط ، وبيعت رسايله فى ميعادها بالضبط .. تلقاه صور لنا كام خريطة مهمين وبعتهم مع واحد صاحبه على أنها جواب غرامى لى .. والميكروفيلم تحت ورقة البوستة عادى ! ..

جرع ايزاك كأس الكونياك دفعة واحدة ، ونهض قائلاً :

ـ واشمعنى بيروت ! ..

وضحكت عبلة ...

ـ لأن البعثة دى مسافرة بيروت ! ..

وسار ايزاك إلى ركن فى الصالون كان يحتفظ فيه برقعة شطرنج .. كانت الرقعة تمثل جانبين ، أحدهما ايزاك .. وكانت

قطعة قد تحركت كثيرا وفى كل اتجاه وقد حاصرت قطع الجانب الآخر الذى كان ــ حتى ذلك الوقت فى رأى ايزاك ــ لم يحرك قطعة واحدة من قطعة.. ووقفت عبلة ترقبه وقد استغرق فى التفكير.. ثم امتدت يده لتحرك قطعة من الرقعة الأخرى.. وسألته عبلة :

ــ ايه ده ؟!

ــ لو كانت مصر حست بحاجة.. حاتتصرف كده !.. ثم ملأ صدره بالهواء وقال :

ــ لازم ناخذ رأى تل أبيب !..

■ ■ ■

جذب «عمر حمدى» الملف السرى من بين يدى وقد كنت مسغرقاً فى قراءته وقال :

ــ ده ما بقاش جهاز مخابرات.. أنت عاوز ايه ؟!.. قلت : «عاوز اللى حصل» !..

ــ أنا مش مرتاح للرسالة دى ياعبلة !

ــ مش ممكن ؟!..

قلت وأنا أضحك :

ــ لاعتبارات الأمن.. مش كده !.

ومال عمر فى غيظ وهو يقول :

ــ أنت بتضحك ؟!.. أنت تعرف أننا لو مكناش قبضنا على عبلة كامل، مكانش ممكن حرب أكتوبر تتم بالكفاءة التى تمت بيها ؟!..

كان عمر حمدى هو الأخر يلعب الشطرنج فى مكتبة بمبنى المخابرات العامة فى القاهرة، مع مجهول..

كان هذا المجهول بالنسبة اليه معلوما.. كان هو ايزاك.. وقد أستغرق فى تلك الايام فى مراجعة رقعة شطرنجه لساعات.. كيف يمكن أن يتحرك ايزاك ؟!.. وهل تأتى عبلة الى بيروت لتلتقى بالمهندس على شاكر !! ■ ■ ■

هبطت أحدى طائرات شركة العال الاسرائيلية مطار باريس، وكانت تحمل راكبا شديد الاهمية.. وكان هذا الراكب يحمل جواز سفر لايحمل اسمه الحقيقى.. ولقد استقل هذا الراكب سيارة تاكسى غادرها فى ميدان الكونكورد.. ثم دخل أحد المحلات وشرب فنجانا من القهوة السوداء، وغادر المحل بعد أن نظر فى ساعته.. لم يكن يحمل حقيبة، وكان يبدو أنه يعرف باريس جيداً، وفى إحدى المنحنيات قفز إلى سيارة أتوبيس كانت تدور فى المنحنى ببطء، ثم غادرها عند شاطىء السين، ثم استقل «تاكسى» كان يبدو أنه فى انتظاره.. وعندما انطلق التاكسى قال السائق :

ــ هل كانت الرحلة موفقة ؟!..

ورد الراكب الغامض :

ــ لولا بعض الضباط لكان كل شيء على ما يرام ! »

وبعد عشرين دقيقة بالضبط ، كانت عبلة كامل تقدم لهذا الراكب كأساً من البراندى المعتق ، وكانت تستعد لمناقشة الأمر مع ايزاك ..

وقبل أن ينتصف الليل ، نظر الرجل الغامض فى ساعته قائلاً :

ــ لم يبق سوى ساعة على موعد الطائرة العائدة إلى تل أبيب ، ولقد وعدت زوجتى بالعودة هذا المساء ، وعلى كلٍ ، فان الأمر الأخير لك يا ايزاك .. انت المسئول عن عبلة ، غير أن رأيى الشخصى ، الا تسافر عبلة إلى بيروت ! ..

■ ■ ■

غير أن ايزاك اتخذ قراره أخيرا ، وبعد أسبوع ، وعلى مسئوليته الشخصية ، بأن تسافر عبلة إلى بيروت لتأخذ الرسالة من المهندس على شاكر !!

قال عمر حمدى لأحد معاونيه :

ــ عبلة جاتسافر .. بس لازم تعدى على جنيف الأول ! ..

ــ اشمعنى يا فندم ! ..

ــ رمزى بيشتغل فى الاستيراد والتصدير ولازم عنده معلومات ! ..

ولقد كاد رمزى يفقد صوابه فى تلك الليلة .. كان مثل مجنون اطلق من عقاله فراح يهلوس .. اجتاحه احساس طاغ بالذنب .. غير أن « عمر حمدى » استطاع رغم تعبه الشديد وحاجته الاشد إلى النوم ، أن يعيده إليه صوابه .. وكان كل المطلوب منه ، اذا سألته عبلة عن بعض المعلومات بطريقة أو بأخرى ، أن يدلى إليها بمعلومات مزيفة ! ..

ووافق رمزى ..

وذهب عمر إلى الفراش .. والقى بجسده عليه واغمض جفنيه .. لكن شيئاً ما أطار النوم من عينيه .. لم يكن ذلك الأرق الذى كان ينتابه كلما وصلت احدى العمليات إلى ذروتها ، بل كان قلقاً غريبا .. قلق ازداد مع دقات التليفون الرقيقة .. رفع السماعة ، فجاءه صوت يعرفه جيدا :

ــ رمزى حاول الاتصال بباريس ثلاث مرات .. وبعدين أخذ العربية وطلع على اوتوستراد الغرب ! ..

لثوان تجمدت كل حواس « عمر » .. أيكون قد خدع كل هذا الوقت ، أيكون رمزى واحدا من الشبكة .. والا ، فالى أين هو ذاهب الآن !

بعد اثنتى عشرة دقيقة بالضبط ، كان صاحب الصوت يفسح المكان خلف عجلة القيادة لعمر حمدى ، الذى اطلق للسيارة المرسيدس ٤٥٠ العنان .. كان مجنونا .. وكان صاحب الصوت بجواره يصرخ :

ــ حاتروح فى داهيه ! ...

ــ هو ده الطريق لباريس ؟! ..

هو ! ..

ــ قبل ما تسافر لازم تاخذ بنزين وزيت ! ..

ــ صح ! ..

ــ فيه محطة فى الطريق ! ..

ــ فيه ! ..

وصرخت عجلات السيارة على أرض الطريق تنهبا نهبا .. وقبل أن تصل إلى محطة البنزين المضاءة ، لمح عمر حمدى سيارة مرسيدس أخرى تغادرها بسرعة .. فصرخ :

هادى عربية رمزى ! ..

ــ هى ! ..

ليلتها ، كادت تحدث كارثة ، عندما اقتحمت سيارة عمر الطريق لتوقف سيارة رمزى ! ..

■ ■ ■

« .. رمزى بك ، الدليل الوحيد على أنك عبيط ى دموعك ، وأنا إذا كنت أقدر دلوقت اخد معاك اجراء قاسى .. الا انى باخيرك ما بين حاجتين .. مصر .. أو عبلة كامل ! ..

حدث هذا فى احدى غرف السفارة المصرية بجنيف ، وكان الوقت فى الثالثة صباحا .. وكان رمزى السيد يبكى كطفل . وسؤال واحد يردده بلا توقف : « ليه يا عبلة .. ليه ؟! ..

■ ■ ■

قبل أن تصل الطائرة القادمة من جنيف إلى مطار بيروت بثلاث ساعات ، اقلعت من مطار القاهرة الدولى ، احدى طائرات شركة مصر للطيران .. ولم يلحظ أحد ان الطائرة كانت خالية ، لم يكن بها سوى ثلاث مضيفات ، اقلهن وزنا كانت تزن تسعين كيلو جراما ، وتحمل عضلات مصارع .. ولم يكن أحد يعرف : إلى أين ؟! ..

■ ■ ■

فى مطار بيروت كان عمر حمدى يدخل غرفة مدير المطار مع صديق لبنانى ، ليأخذا اذنا بدخول احدى سيارات السفارة المصرية إلى أرض المطار .. ان طائرة جنيف تحمل راكبة هى قريبة لعمر حمدى ، مريضة بالقلب .. وفى شهامة وافق مدير المطار دون تردد وهو يقول :

ــ أصلها طماعة .. طماعة قوى ! ..

قال هذا ، وطلب من معاونه أن يحجز له مقعدا على أول طائرة إلى جنيف ..

كانت ساعة الصفر تقترب .. وكانت قطع الشطرنج فى مكتب عمر حمدى قد تداخلت الآن تماما .. وبدأ أن المعركة محتدمة احتداما شديدا ..

وبعد عشرين ساعة بالتمام والكمال ، كان يجلس فى مكتب «عزت» بالسفارة المصرية فى جنيف .. وكان الحديث الذى أدلى به إلى عزت ، بوصفه دبلوماسيا مسئولا ، قد حول وجه عزت إلى لون الشمع الأبيض .

ــ أنا عارف أن الصدمة مش عادية ياعزت بيه ، أنما أنت عارف أن أمن البلد فوق كل اعتبار ! ..

وخرجت الكلمات من بين شفتى عزت مرتعشة باكية :

ــ يا خسارة .. لكن .. ايه المطلوب ! ..

ــ رمزى .. رمزى السيد ! ...

ــ ماله ؟! ..

ــ فيه احتمال كبير أن عبلة تعدى على جنيف قبل ما تروح وتتصل برمزى ! ..

ــ طب ليه ؟! ..

ــ تكرم أخى ! ..

وصلت طائرة شركة مصر للطيران إلى مطار بيروت قبل عشر دقائق بالضبط من وصول طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف .. فتح الباب ، ووضع السلم ، وبدأت الاجراءات ، ولم يغادر الطائرة أحد ..

■ ■ ■

وصلت طائرة الاير فرانس القادمة من جنيف ، وفتح الباب ، وبدأ الركاب يغادرونها عندما اقتربت سيارة تحمل ارقاما دبلوماسية لتقف بجوار السلم ..

وظهرت عبلة كامل عند قمة السلم .. وراحت تهبط فى هدوء .. وما أن وصلت إلى نهاية السلم حتى تقدم منها عمر حمدى :

ــ آنسة عبلة ؟! ..

ــ أفندم ! ..

ــ أنا المهندس على شكرى :

واطلقت عبلة من عينيها نظرة كالرصاص .. فابتسم عمر وهو يقدم لها الصديق اللبنانى :

ــ ابن عمى .. يونس السيد .. سكرتير أول السفارة .. قلنا نوفر عليكى الجمارك .. اتفضلى ! ..

وعندما وضعت عبلة قدمها داخل السيارة .. كان ثمة رجل من ركاب الطائرة يسرع الخطا نحو الخارج .. وكان يبدو متلهفا وهو ينظر خلفه كل خطوة ... كانت سيارة السفارة المصرية قد اتخذت مسارا غريبا إلى قلب المطار .. إلى حيث كانت تربض طائرة شركة مصر للطيران ، التفتت عبلة نحو عمر وقالت :

ــ احنا رايحين فين ؟! ..

ــ مصر ! ..

قالها عمر فى نفس اللحظة التى وقفت فيها السيارة أمام سلم الطائرة المصرية .. وعند نهايته ، كانت مضيفتان تبدوان كجبلين رهيبين تفتحان باب السيارة ..

يالله ياعبلة .. مفيش وقت ! ..

وفى هدوء شديد ، غادرت عبلة السيارة إلى سلم الطائرة .. وكان عمر خلفها .. وبعد أربع دقائق .. كانت الطائرة محلقة فى الجو .. وبعد عشر دقائق كان الراكب المتلهف يطلب مكالمة عاجلة جدا لباريس ..

كانت رقعة الشطرنج أمام ايزاك ، وكانت زجاجة الكونياك قد فرغت عندما دق جرس التليفون .. ورفع ايزاك السماعة ، وجاءته مكالمة من بيروت .. وما أن استمع إلى الخبر الذى زفه

إليه صوت الراكب المتلهف ، حتى انقبضت ملامحه .. وضع السماعة .. ونظر إلى رقعة الشطرنج . ثم فتح درج مكتبه ، وأخرج مسدسا صوبه إلى رأسه ، وأطلق رصاصة واحدة ، كان دويها مكتوما .. ثم سقط .

فتح عمر حمدى باب غرفته بمبنى المخابرات العامة المصرية بالقاهرة وافسح الطريق قائلاً :

ــ اتفضلى يا عبلة ! ..

وما أن خطت عبلة داخل الغرفة حتى صاحت :

هو انت كمان بتلعب شطرنج ؟!

وما أن أغلق عمر الباب خلفه ، حتى دق جرس التليفون فرفع السماعة :

ــ آلو .. أيوه ... ايه ؟ .. معقول .. خسارة ! .

ثم وضع السماعة .. فسألته عبلة :

ــ فيه أيه ؟! ..

ــ إيزاك ..

شهقت عبلة :

ــ ماله ! ..

ــ انتحر ! ..

ومد يده إلى احدى قطع الشطرنج ، والقى بها فى سلة المهملات ! ..

باذن خاص من المؤلف، لمكتبة مدبولي الصغير
للتوزيع خارج جمهورية مصر العربية)

[signature]

٢/١/ ١٩٩١

رقم الايداع : ٤١٨٨ / ١٩٩١
الترقيم الدولى : ٨ـ ٠٢ ـ ٥١٩٣ ـ ٩٧٧

عربية للطباعة والنشر
١٠،٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨

هذا الكتاب

ليس أكثر اثارة من قصص الجاسوسية ، وفى العالم أجمع صدرت قصص كثيرة تحكى مغامرات لجواسيس وضعوا علامات على تاريخ الكرة الأرضية ، وخاضوا غمار مغامرات غريبة وعجيبة .. غير أن مانشر عن هذه القصص ، مهما بلغت دقته ، لازال يحوى فى داخله أسراراً لم تذع بعد ، وغالب الظن أنها لن تذاع أبدا .. ذلك أن الجاسوسية علم قائم بذاته ، علم بلا كتب ، بلا نظريات .. لأنه يعتمد فى الأساس على ذكاء الانسان أولاً وأخيراً .

ويوم التقى مؤلف هذا الكتاب بواحد من رجال المخابرات المصرية لم يكن يعرف شيئاً عن هذا العالم المفعم بالأسرار ، كانت نظرته إلى التجسس ومكافحة التجسس قاصرة ، وناقصة .. غير أن هذا العالم اجتذبه تماما وامتصه ، أنه نوع من المعرفة لم يخض أرضه أبداً .. وكانت رحلة ، استغرقت من العمر عامين ، عرف فيها الكثير ، وظل يجهل ما هو أكثر !!



وإذا كان هذا الكتاب جهدا متواضعا يقدمه إلى هؤلاء الرجال الذين يعملون فى صمت ، فإنه ـ يقينا ـ يعلم أن هناك من تخصصوا فى الكتابة فى هذا المجال ، وانهم أكثر قدرة فيه ، على نقل الحقيقة للناس .